إيان ريد

رواية

نحن ننتشر

مكتبة

ترجمة: غلاء سمير أنس

ترجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم
مبادرة ترجم
Tarjim Initiative
Translation funded by the Tarjim Initiative

صفحة ٧

T2883

WE SPREAD

Iain Reid

مكتبة
t.me/soramnqraa

نحنُ ننتشر

إيان ريد

ترجمة: غلاء سمير أنس

صفحة

صفحة ٧

كتاب
نحنُ ننتشر
المؤلّف
إيان ريد

الطّبعة الأولى:2025
التّرقيم الدّوليّ
9786038470804
رقم الإيداع
1446/7816

Copyright © Iain Reid 2022
By arrangement with TransatlanticLiterary Agency Inc

حقوق التّرجمة العربيّة محفوظة
© صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع
E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

T2883

مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

إلى إليزا...

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الجزء الأوّل

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان واحدًا من أبرزِ الفنّانين التّشكيليّين، وأغزرهم إنتاجًا، بلغَ في فنّه مبلغَ العظماء والعباقرةِ، بما ميّزَ لوحاتِه من سعيٍ ملحوظٍ إلى الإضافةِ، وإلى معانقةِ الإبداعِ، وفضلًا عمّا يُفرد منجزَه من خصائصَ قلّ نظيرُها، فقد مثّلتْ الجرأةُ ميسمًا من مياسمه العديدةِ، واستطاعَ بفضْلها أن يجلبَ إليْه الأنظارَ وأنْ يحملَ المتلقّين على الحيْرةِ، صادمًا آفاقَ انتظارهم، لمْ يكنْ لما تقدّمَ أن يكونَ إلّا بما دأبَ عليهِ خلالَ سنينٍ من سعْيٍ جدّيٍّ لصقلِ مهاراته وللارتقاءِ بها، وأمكَنَ له بفضلِ تفانيه ومثابرته أنْ يكونَ صاحبَ السّبق مبرّزًا في تجسيده لجماليّة الارتباك المنظّم، والمُغالى فيه، حشَدَ من حوْله طفْرةً من المعجَبينَ المُجلّينَ لبصمَته، ومِن المُقلّدين، واستطاعَ أن يكسبَ ثقةَ المموّلين، وأن يحظى بدعمهم، لمْ يكنْ يرى في طائفةٍ من الفنّانين الشّباب الّذينَ عَمَدوا إلى استنساخِ طريقته، دونَ إضافةٍ، إلّا ببّغاواتٍ، وحدَا الأمرُ بواحدٍ من المراجعين إلى التّعبير عن شعوره بضربٍ من الجرح العاطفيّ ساعةَ مكاشفته لما ينطوي عليه مُنجزه من قيمةٍ فنّيّةٍ.

لم يفتُرْ له عزمٌ خلالَ ما جمعنا من الزّمانِ؛ إذْ أجلت لي رفقته عن إيمانه العميق برسالته، وعن هوسه في غيرِ كَللٍ بالبذلِ وبالإنتاجِ، كانَ مدفوعًا بقوّةٍ كامنةٍ، وبطاقةٍ رهيبةٍ، وبشغفٍ لا نظيرَ له.

وكانَ من عادتِه أن يتلقّى من مُعجَبيه رسائل، وبطاقاتٍ تصلُه على عنوانه في شقّتنا من سائرِ أنحاءِ بلادنا، بلْ إنّ بعضَها كانَ يفدُ عليْه من

أوروبّا، فترى أنّه وهو يصافحها ويتملّاها يُديرُ عينيْه في شيءٍ من التّواضع الزّائف، "إلى الفنّان"، "إلى "المبدع" هكذا كانَ المعجبون يفتتحونَ رسائلَهم ويعنونونها، فلا يفتأ عُجبه بنفسه يزدادُ، وإن حاولَ إخفاءَه.

لفتت أعمالُه أنظارَ الطّلّاب، فأمالوا إليها عنايتَهم، ومثّلَت موضوعًا دسمًا لحلقات نقاشهم، وعكفوا على تفسيرها، وفي المقابل فقد استطاعَ أن يسجّلَ حضورَه في مؤسّساتٍ عديدةٍ نزلَ عليها ضيفًا ومُحاضرًا، في حضْرةِ جمهورٍ من المهتمّين، يوجّهون إليه أسئلَتهم، فيردّ عليْها مستفيضًا في الشرح وفي الإبانة عمّا تختصّ به أعمالُه كاشفًا لهم عن أبعادها، مسديًا في الأثناء النّصائحَ للمبتدئين من الفنّانين من ذوي الطّموحِ، فيُفيدونَ منها، لم تكن شهرته شبيهةً بما يحظى به الممثّلونَ والموسيقيّون، ولكنّ النّاسَ وقّروا عبقريّته، فنال التّبجيلَ والاعترافَ بِعدِّه عَلَمًا من أعلامِ السّيرياليّةِ أثبتَ فيها القدم وأضافَ.

ورغمَ الوفرةِ من المعجبين ومن المتابعينَ والأصدقاء في حياته، فإنّ أحدًا من هؤلاءِ لم يتعرّفْ إليه مثلما تعرّفتُ، ولم يقترب من حقيقته كما اقتربت، لقد منحتني الأقدارُ من الأسباب ما لم يتسنَّ لغيري حتّى أكنهه في عمقه، ولا أجاوزُ الصّوابَ إذا أكّدتُ أنّ خُبري به كان أكبرَ ممّا نالَ أفرادَ عائلته، بل لعلّني عرفته أكثرَ ممّا أمكنَ له أن يعرفَ نفسَه.

خلالَ ما جمعنا من سنواتٍ تقاسمنا فيها العيشَ، وترافقنا، كنت شاهدةً على ما يشكّلُ هُويّته من بُنًى خفيّةٍ، لا تُرى على السّطح، ومن ذلك مثلًا أنّ الاعتقادَ الّذي اطمأنّ إليه الجميعُ ووثقوا به حولَ الحصانة الّتي تميّزه في علاقةٍ بالسّائد من الاتّجاهات لم يكن صحيحًا؛ فواقع أمره أنّه كانَ محتاجًا إلى قدرٍ كبيرٍ من ردود الفعلِ، وإلى الجبهات المضادّة،

حاجتَه إلى الاعتراف والقَبول، إنّ الصّخبَ هو أكثرُ الأشياء الّتي تفرد حياتَه، وتعبّر عن حقيقته في صلةٍ بكلّ ما يمارسه من أنشطةٍ.

إنّ اقترابَنا من بعضهم يجعلنا قادرين في وقتٍ وجيزٍ على معرفةِ أشياء كثيرة عنهم، غيرَ أنّ عددًا من الحقائق الّتي تمثّلهم يظلّ دوننا، ولا يتسنّى لنا إدراكها، ومكاشفتها إلّا بعدَ عقودٍ لا بدّ منها لتكون الصّورة بلا لبسٍ، ورغمَ ما يسِمُ عملَ شريكي من أبعادٍ روحيّةٍ، سامية وشفّافة، فإنّه في محصّل أمره قد كان بشريًّا، وليس بوسع المرء أن يتجاوز ذلك البعد في تكوينه، فبمرور الوقت غدا كغيره من الرّجالِ، إذ تضاءل اهتمامه، ونضبَ فضوله، لقد فقدَ ذلك الشّغف، ولا أنكر ما استشعرته جرّاء ذلك من مرارة ومن خيبة أملٍ، فعلى مرأى من عيني شهدت تحوّله التّدريجيّ إلى كائنٍ مأخوذٍ بما أحاط بوجوده من أشياء ومن أشخاصٍ.

لم تكن حياتُنا دراميّةً، وهي لا تزيدُ في شيءٍ أو تنقصُ، عمّا يمكنُ أن يصبغَ الحياةَ بينَ شريكيْن من أوقاتٍ حلوةٍ، وأوقاتٍ مُرّةٍ، نتشاجرُ أحيانًا، ونتصالح أخرى، وينفّر الواحدُ منّا الآخرَ، ويحنّ إليه، غيرَ أنّنا بتقدّم السّنين صرنا نتعارك لأسبابٍ أكثر من تافهةٍ، من قبيلِ درجةِ الحرارة الّتي يجبُ أن يُضبطَ عليها المُكيّفُ.

في الأمسيات البعيدةِ من شبابنا كنّا نشرب النّبيذَ الأبيضَ، ونتحدّث الفرنسيّةَ بصورةٍ متعثّرةٍ، ولكنّ ذلك كان يُمتعنا، ويبعث فينا النّشوةَ، وعندما تقدّمت بنا السّنّ، صار الواحدُ منّا يتحاشى أن يكونَ مع الآخر، وصرنا نقضي أوقاتًا طويلةً في صمتٍ مطبقٍ، وفي انفصالٍ ما انفكّ يتعمّق، ويمثّلُ طابعًا لحياتنا، حيث العزلةُ والنّفور، كان يشعر إزاءَ تقدّمه في العمر بنوعٍ من الاحتقار، واهتزّت ثقته بجسده، لما بدا

عليه من وهَنٍ، وتلاشى ما كان يشدّني إليه من حبٍّ، ومن شغَفٍ، وخبَت تلك الرّغبةُ في مكاشفةِ أغواره، لم يعد يمتلك ذلك البريق الأخّاذ، وتلك الغرابةَ الآسرةَ، لقد أضحى رجلًا أقلّ من عاديٍّ، وصرتُ محيطةً بأمره إحاطةً كاملةً لا وجهَ فيها للدّهشةِ.

لطالما عدَّني امرأةً متقلّبةَ المزاجِ، بحساسيّةٍ مفرطة إزاءَ الأشياء، تتحاشى المواجهةَ، ولطالما كان يكرّر على مسمعي أنّه قد كان حريصًا خلالَ ما جمعنا من سنينٍ على التّخفيف من وطأةِ القلق الّتي تصبغ شخصيّتي، ومن لطفي الزّائدَ ووداعتي السّاذجة، مؤكّدًا في الأثناء على ما أحمله من تمرّدٍ في داخلي، لقد كان في محصّلِ أمره غيرَ مُطمئنٍّ إلى أمورٍ كثيرةٍ في حياتنا المشتركةِ، جزعًا أغلبَ الوقتِ، ولكنّه استطاعَ خلافًا لي أن يُخفيَ ذلكَ الجزعَ، وألّا يترك له الفرصة للبروز.

أخبرني قُبيْلَ وفاته، عن إحساسه بالرّعب، كانَ الدّاءُ حينها قد تمكّنَ منه، ووهنت قواه، وكان أكثر ما يخشاه أن يكونَ مصيره النّسيانُ، لم يكن في واقع أمره من أولئك الّذين يهابون الموتَ أو يتوجّسونَ من اقترابه، وأتذكّر له قولًا لطالما حرص على ترديده "متى دَنا منك الموتُ ورمقته عندَ الأفق، فلا تستسلم للخوفِ، لأنّه سيحفر فيك عميقًا"، وكانَ في المقابل محبًّا للحياة، شديدَ التّعلّق بها، يحدوه إحساسٌ بقدرته الدّائمةِ على العطاءِ، وأسرّ لي في تلك اللّحظاتِ الأخيرة من حياته، بما يتربّص به من خوفٍ إزائي، إذ لم يكن يريد لي أن أكملَ بقيّةَ الدّربِ وحيدةً.

لقد كان مُحقًّا في ذلك، فها أنا اليومَ في أرذلِ أيّام العمر، وحيدةً مُفردةً، مُحاطةً بالصّمتِ المطبق، وبأشياءَ لا تهب المعنى، ولا تنبض بالحياة، ومثقَلةً بالذّكريات؛ أسطوانات الفينيل، مزهريّات لم يزُرها

الوردُ منذ زمنٍ، ملابس، وأطباق، وألبومات صور، ومجلات عن الفنّ، ورسومات، ورسائل من الأصدقاء، ورفوف عديدة تحمل الكتب، إنّني أسيرةٌ لما كانَ، أستعيده بمرارة، وأسترجع شريطَ الذّكرياتِ بتفاصيله الدّامية والسّعيدة، لقياي به، أيّامنا الّتي قضيناها معًا، نهايتها، ها أنا منذ خمسين عامًا في الشّقّة نفسها، حيث تعوّد الرّجل الّذي شاركني المكانَ، أن ينبّهني في لحظاتنا الحميمة إلى أن حساسيتي المفرطة ستتسبّب لي بالتّهلكة.

وأنا اليومَ في هذا الفراغ المطلق، أردّ عليه: "لم تكن حساسيّتي أكثر من حساسيّتك، ولم يكن خوفي أكبر من خوفك".

لستُ غاضبةً ولا مستاءةً، أو مُشفقةً، ولكنّني يائسةٌ من كلّ شيءٍ، وفي حدادٍ على كلّ شيءٍ، إنّ أكثرَ ما يحزّ في نفسي هو سذاجةُ ما كنت أعتقده في غابر الأيّام.

أنظر حولي إلى غرفة المعيشة.

أجولُ ببصري، حيثُ تتكوّم الدّفاتر، وكرّاسات الرّسم، والرّسومات، والصّور الفوتوغرافيّة، وفي أسفلِ ذلك الرّكام تقبع أوّل قطعةٍ فنّيّةٍ امتلكتها، وهي لوحةٌ صغيرةٌ تتوسّطها شجرةُ الحياة، بحجم الكفّ، كانت هديّةً من والدي، وقد حرصتُ على ألّا أعلّقها إطلاقًا، فلم أكن أريد لأحدٍ أن يراها.

تتوزّع الكتبُ بينَ رَفّين، ولكنّني لا أجدُ الشّغفَ نفسَه لقراءةِ ما اعتدتُ قراءته في السّابق من الرّواياتِ أساسًا وغيرها من الكتب التّاريخيّة ومن الموسوعاتِ العلميّة والطّبيعيّةِ، وأسفلَ طاولة القهوة هناك صندوقٌ يزخر بمنحوتات خزفيّة صغيرة، من إبداعي وأنا بعدُ صبيّةٌ في العَقد الثّاني من العمر، فضلًا عمّا أحتفظ به في خزائني من

تسجيلاتٍ موسيقيّةٍ، انقطعتُ عن الاستماعِ إليها منذ وقتٍ طويلٍ.

هذا الشّتاتُ المبعثر من أشياء لم يعد لها اليوم ما كانَ لها من النّفسِ، يظلُّ رغمَ تقادمه جزءًا منّي لا يمكن نكرانُه.

لا يحلو لي الجلوسُ إلّا على المقعد اليتيم في غرفة المعيشة، أشاهد التّلفازَ، وربّما غفوتُ لأنال قسطًا من الرّاحةِ في القيلولةِ، وأنا على المقعد نفسِه، أتناولُ طبقَ الحساء الأحمر، طعامي المفضّل على الصينية، فيما يُضيء الغرفةَ مصباحٌ واحدٌ لا غيرَ، ليلة البارحة تناولت بالكاد نصفَ علبة الحساء، وعلى غير رغبةٍ ترشّفتُ المرقَ المالحَ، ولم أخلدْ إلى النّوم إلّا بعدَ تقلّبٍ وذلك دأبي منذ مدّةٍ.

أشعرُ بوهنٍ في سائر أنحاء جسدي، وبإرهاقٍ شديدٍ، الألم المستمرّ في ركبتي يحرمني لذّة المشي والانتقال بينَ الأمكنة، فلا أبرحُ مقعدي، ألتصق به أغلب ساعات اليوم، ولا أفارقه إلّا للنّومِ، وتتضاءلُ رغبتي في الأكلِ يومًا بعد الآخر، لأكتفي بطبق الحساء مرغمةً، فلا أتجاوزه إلّا قليلًا، ثمّ إنّني لا أكادُ أنعمُ بما يمنحني من دفءٍ، إذ سرعانَ ما يفقد حرارته بعد بضع ملاعقَ لأنّني تعوّدت أن آكلَ طعامي ببطءٍ.

كنتُ فيما مضى أستمتع بالطّهي سواء تعلّق الأمرُ بما أعدّه لنفسي، أو بما أعدّه للآخرين، وكان يُسعدني أن أرى أصدقائي وهم يتناولون ما جَهّزتُ لهم من وجباتٍ، وأن أقرأ الرّضا في أعينهم، ولطالما أمتعني أن أهُمَّ بتنظيف المناديل المتّسخة؛ لأنّها تحملُ آثار متعةٍ مشتركةٍ وحقيقيّة ،دَأبنا على استضافةِ الأصدقاء على حفلات عشاءٍ صاخبةٍ كلّ بضعة أسابيع، نحتسي خلالها النّبيذَ، وتدورُ الأحاديث فيما هو سياسيٌّ وفنّيٌّ وحولَ الدّين والموسيقا والأفلام، ونرقص وتصدح أصواتنا بأجمل الأغاني، ونلهو ونمرحُ.

كان المدعوّون في الغالب من الأصدقاء في الوسط الفنّيّ؛ فمنهم الرّسّام، ومنهم الموسيقار، ومنهم الممثّل، مثلما أنّنا كنّا نوجّه الدّعوةَ إلى عددٍ من الجيران المقرَّبين، وكان يطيب لي أن أدعوَ زملائي في العمل، ممّن توطّدت بهم الصّلة، فقد عملتُ محاسبة في البنك ذاته لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، وكنت مسؤولة في العموم عن تقديم قسائم الإيداع، ولطولِ المدّةِ لم أكَدْ في يومي الأخير من مسيرتي المِهْنيّة أتعرّفُ إلى وجوهٍ كثيرةٍ تحلّق أصحابها من حولي، وأحسست بنوعٍ من الغربةِ.

اعتدتُ أن أطهو أيّام الآحاد قدرًا كبيرًا من مرق العظام الغني بلون الماهوجنيّ[1]، وغدا ذلك تقليدًا سرتُ على رِسله في الشّتاء، حيث تعلق ببطء رائحتُه الغنيّة في فضاء الشّقة، فتصيب ملابسنا وتلازمها أيّامًا، أشوي في كلّ مرّةٍ دجاجتيْن كاملتيْن، فضلًا عن عجّة الفطر، وأعدّ بالمناسبة سلطة الجرجير بصلصة الخلّ باللّيمون، أمّا بسكويت مخيض اللّبن فكان حديث البناية كلّها، أعدّ منه عادةً كمّيّةً كافيةً أقدّم نصفها للجيران.

كانت وجبتي المفضّلة على قدرٍ من البساطة؛ إذ أكتفي ببيضةٍ واحدةٍ مقليّةٍ دون أن يتصلّب قوام صفارها، وبخبز محمّص بالزّبدة أغمسه فيها، تعلّمتُ طريقة القلي هذه في التّاسعة أو العاشرة، وكنت أجد في مثل هذا الغداء، الّذي أرفقه عادةً بكوبٍ من الشّاي السّاخن، ما أحتاجه وأكتفي تمام الاكتفاء، وأمّا اليوم، فطعامي يتألّف من الحساء، ومن بسكويت الصّودا الجافّ.

---

(1) الماهوجني: نوع من الخشب الصلب الفاخر يتميز بلونه البني المحمر الفاقع.

أسرّح البصرَ مجدّدًا في غرفة المعيشة، فإذا الأشياء على حالها، بلا ألقٍ أو بريقٍ، إنّها تتقادمُ وتمضي إلى حتفها، لم تعد غرفة المعيشة أكثر من مستودعٍ للأغراض التّالفة والبالية، حيث الصّحف القديمة، والحليِّ العشوائيّة، والبُسط ذات البقع، وامرأةٌ طاعنةٌ في السّنّ أنهكها التّعبُ، وخذلها جسدُها.

أقرِّب ملء الملعقة من الحساء إلى أنفي، وأشمُّه قبل تذوّقه، فأعلم أنّني فاقدة لحاسة الشّم، تسقط الملعقة من يدي أرضًا، إلى جانب قدمي، وعندما أنحني لالتقاطها أشعر بالضّيق في صدري، وأبدأ السّعال الخفيف قبل أن يشتدَّ ويُصبح حادًّا.

وعندما يتوقّف السّعال أخيرًا، أشعر بالدّموع تنساب على وجنتيَّ.

ليلةٌ أخرى من الأرق المقيت، ومن التّقلّب في الفراش دون جدوى، يا للوحشة، أستجدي النّوم فيأبى أن يطاوعَني، إنّه لا يجدرُ باللّيل أن يمتدّ أكثرَ، فساعاته ثقالٌ على النّفسِ، ولا أمل في أن أحظى بطرفة عينٍ إلّا بعدَ عناءٍ.

لا فكرة لديّ عن الوقت، ورغم أغطيتي الّتي تصل ذقني فأنا أشعر بالبرودة ،غرفة نومي كغرفة المعيشة، ضيّقة ومملوءة بالأغراض، ولا طاقة لديّ للتّخلص من أيّ شيء، أتقلّب ثانية، وأتمدَّد على الجانب الآخر من المرتبة، ورغم التّعب الّذي يصيبني فإنّي أعجز عن النّوم.

عندما بدا لي أن النّومَ قد تكرّمَ بالقدوم، تناهى إلى مسمعي صوتٌ من الجانب الآخر للجدارِ كان واضحًا ومسموعًا:

"توقّفي، وأنصتي جيّدًا".

حسبتُ أن لا أحدَ يسكنُ الشّقّة المجاورةَ، بعد أن غادرتْها المستأجرةُ فيما قدّرتُ منذ أسابيع عديدةٍ، ولكنّني كنتُ أسمع صوتَها بوضوحٍ تامٍّ، لم يكن صراخًا بالمعنى الحقيقيّ للكلمةِ، ولكنّها كانت تبدو جادّةً في حديثها، صار صوتها بمرور الوقت مكتومًا حتّى إنّني لم أعد قادرةً على تمييز الكلماتِ، في الأثناء تناهى إلى سمعي سقوط كرسيٍّ، وانغلاقة بابٍ ما .

في محاولةٍ يائسةٍ للنّوم، نمت على بطني مباشرةً، وجعلتُ الوسادةَ على أذنيّ اتّقاءً للضّوضاءِ.

مثلَ كلّ يوم، يتّخذُ روتيني الصّباحيّ الشّكلَ نفسَه، فلا يزيد ولا ينقص، أدلفُ الحمّام، فأنظّفُ أسناني، وأغسل وجهي، ثمّ أرشُّ ملءَ يديّ من الماء الدّافئ على وجنتيّ، بشرتي ناعمةٌ، ولطالما أثنى عليها الغرباء، وأكّدوا لي أنّني أبدو أصغر من عمري الحقيقيّ، وأمّا شعري فقد صار أكثر انسيابًا، وأشدّ التصاقًا بفروة رأسي، لم أصبغه منذ سنين عديدة، لطالما كنتُ قصيرة ذات قوامٍ رشيق، ولكنّني فقدت الوزن.

لستُ في حاجةٍ إلى أن أتأكّد من الأمر، فقد غدوتُ هزيلةً بما لا يدعو إلى الشّك، وللنّاظر أن يلمحَ بيسرٍ، ما ألمَّ بي من شحوبٍ بعد النّضارة، لقد جفّت مياهي، وتضاءلتُ كما لو أنّني فاكهةٌ مجفّفةٌ، لم أكن نشطةً فيما مضى، ولكنّني اليومَ أكادُ أعجزُ بسبب التهاب في مفصل ركبتي عن كلّ حراكٍ، وإذا فعلتُ فَبِعناءٍ وبألمٍ كبيريْن.

صار ارتداء الملابس يأخذ منّي تسع دقائق، سترتي، وجزمتي ذات العنق الطّويل، وقفّازتي، ووشاحي، وأخيرًا أضع قبّعتي، أتصوّرُ أنّني أستغرق الزّمنَ نفسَه الّذي يتطلّبه تحضيرُ طفلٍ للخروج، ثمّ إنّني أقوم بذلك الجهدِ كلّه لأقتني بعض اللّوازم فقط .

أسيرُ على رصيفٍ موحلٍ، بعدَ خروجي من المبنى، أسحبُ خلفي عربةً صغيرةً، أعبر بحذرٍ النّافذة الكبيرة للطّابق الأرضيّ الخاصّ بمبنًى إداريٍّ، متثاقلةً، لطالما مررتُ من الطّريق نفسِه حتّى أصلَ البنك، ويحدث هذا بصورةٍ تكاد تكون يوميًّا، أتوقّف في الأثناء لأرى انعكاسي على الزّجاج بصورةٍ كاملة، فأشعر ببؤسٍ لا نظيرَ له، وأتساءل منذ متى توقّفتُ عن الاهتمام بمظهري؟

من الحتميّ أن يهنَ الجسد، ويضعف، كان هذا أكثر ما يخشاه: رؤية

هيئة مستنزفة تعيد النّظر إليه عبر المرآة، أي ذلك الشّعور في أنّه فقد فرصه جميعها في الإبداع، فهل كان ليُقدم على أيِّ أمر ليمنع عنه ذلك؟ هل كنتُ لأقدم أنا على هذا؟ أي على عكس الزّمن؟ لا بدّ أن نصل إلى خطّ النّهاية، فلا مناصَ من ذلك.

هذه هي الحياة، وهذه مأساتها: النّهاية التي تتربّص بنا جميعًا، يمرُّ بي النّاس على الرّصيف، ويخطون خطواتهم حولي دون أن ينتبهوا لوجودي، ودون أملٍ حتّى في أن تلتقي عيني بأعينهم.

أجلسُ عندَ عودتي إلى شقّتي في الطّابق الثّالث في الرّدهة، خلفَ البابِ، المُعَنوَن "ب3" وأخلع عنّي جزمتي، انتابني شعورٌ بأنّني عاجزةٌ عن خلع معطفي، أو تفريغ عربة المشتريات، يحدث أحيانًا أن يخذلَني جسدي، ولكنّني ما زلتُ أحتفظ في المقابل بنضارة ذهني رغم التقدّم في السّنِّ، فبوسعي أن أتملّى الأشياء بعين العقل، وأمحّصها، ثمّ إنّني أميّز الأيّامَ والتّواريخَ، وكذلك الفصول، ولا يُعيقني شيءٌ عن مبادلة الغرباء الحديث في أثناء الانتظار في طابور المتجر، ورغم ما يلمّ بي أحيانًا من قلقٍ، أو من التباسٍ، ومن صعوبةٍ في تذكّر أشياء بعينها، أو عدم إحساسٍ بالزّمن، فأنا ممتنّةٌ لما أنا عليه من وعيٍ بما حولي، دون التيقُّن منه.

أتوجّه إلى رفِّ الكتب، باحثةً عن كتابٍ بعيْنه، وعندما أجده، أتناوله وأتوجّه إلى مقعدي الخاصّ، أقلّب صفحات "السّيرياليّة" لهربرت ريد حتّى أصل إلى واحدة علّمتها بمنديل، أقرأ جهرًا بعض العبارات العشوائيّة.

"مثّلت السّيرياليّةُ ثورةً على مستوياتٍ متعدّدةٍ من الحياةِ السّياسيّةِ والفنّيّة والأدبيّة، وهدفت إلى تحرير بواطن اللاشعور."...

لقد شعرتُ بالألفة إزاء هذا الأثر، وأحببته منذ اللّحظة الأولى لاقتنائه، إنّه يمثّل حياتي في بعدٍ من أبعادها، فالفنّ والسّيرياليّة تحديدًا عنوانان بارزان لمحطّاتها.

تملّكني توقٌ لقراءته حال عودتي إلى البيت، وشعرتُ بالأفكارِ في

داخلي حيّةً نابضةً، متّصلةً بكلّ ما طمحت إليه، هناك رابط خاصّ يشدّني إليه، وقد أمكنه أن يؤجّج عاطفةً من نوعٍ خاصّ في كياني، تزامن اقتنائي له فيما أتذكّر مع عملي على إحدى لوحات الصّور الذّاتيّة التي لا أعرف السّاعةَ مصيرها، ولكنّني أتصوّر أنّها لا تزال هنا في مكان ما، بين كومة الأغراض.

أتذكّر جيّدًا ما انتابني ساعتها من مشاعر، هي أقربُ ما تكونُ إلى النّوبة، وإلى البهجةِ الدّاخليّةِ العارمة، مشاعرُ لا أثر تبقّى منها اليومَ، حيث لا شيءَ سوى نفسي العليلة، وذهني المشتّت، تطرقُ الصّور أبوابه، ثمّ تتبدّى كأنّها لم تكن، تظهرُ كاللّوامع من بعيدٍ، ثمّ تخبو فجأةً، وتتلاشى للأبدِ.

ركَنت الكتاب جانبًا على المنضدة، وأمكنَ لي بعدَ عناءٍ أن أخلعَ قبّعتي، وأن أفتح سحّاب معطفي الثّقيل، انحنيتُ لأكتب ثلاثة أسماء على المنديل النّظيف والمكويِّ بعناية، والخاصّ بوجبة الغداء: أرشيل جوركي، ميريت أوبنهايم، وليونورا كارينغتون.

مضى وقتٌ أثارتني فيه أسماء هؤلاء الفنّانين، في حدّ ذاتها، بغضّ النّظر عن أعمالهم، فلها رنينها، قرأتها مرارًا، ثمّ أرسيتُ المنديل أعلى كومة صغيرة من الملاحظات، مكتوبة بخطّ اليد.

هناك العديد من هذه الكومات الصّغيرة في أنحاء الشّقة، وأحيانًا أجد بعض ملاحظاتي في ثنيات المقعد، أو جيوب السُّتر الّتي أرتديها، بدأت أدوِّن الملاحظات كمذكّرات عاديّة أكتبها لنفسي، عن وصفات الطّعام، أو قوائم المشتريات، ولكنّها غدت عادة تُلحّ عليَّ بمرور الأشهر، وساعدني على ذلك احتفاظ ذاكرتي بقواها كلّها.

إنّ كتابةَ تلك الملاحظاتِ، في هذه السّنّ المتقدّمة، لا يعدو أن يكون

أكثرَ من إجراءٍ وقائيٍّ، فالنّسيانُ يتهدّدني، والخرَف على الأبواب، سيُمحى كلُّ شيءٍ قريبًا، ما تحمّستُ له، وما شغفني، وتعلّقت به، المشاعر، والتّفاصيل، ولن تُجدي نفعًا محاولةُ التّذكّر.

أزلتُ ملاحظتيْن وجدتهما في جيب سترتي الصّوفيّة المعلّقة على ظهر المقعد.

هناك المزيد من الخبز في المُجمِّد.

لطالما أحببت الرّقص.

استيقظتُ على صوتٍ لارتطامِ مكتومٍ تناهى إلى سمعي من الشّقّة المجاورة، متلوٍّ بسعالٍ، وبصوتٍ مستاءٍ لامرأةٍ، لا يخلو من حزمٍ، لم يعد لديّ شكٌّ أنّ الشّقّةَ المجاورةَ مأهولةٌ بسكّانٍ جُددٍ، وأنّها لم تعدْ فارغةً مثلما كنتُ أعتقدُ ،ثمّةَ جفافٌ في حلقي، وبي رغبةٌ في أن أشربَ بعض الماءِ، غيرَ أنّ العتمةَ ما زالت تخيّمُ، والصّبح ما زالَ بعيدًا .

لا أتمتّع بنومٍ مريحٍ ومتوازنٍ منذُ مدّةٍ طويلةٍ، وقليلةٌ هي الأوقاتُ الّتي أغفو فيها بصورةٍ كلّيّةٍ، ولكنّني أرى خلالَها سلسلةً طويلةً من الكوابيس، والأحلام المزعجةِ، ومن بينِ تلك الأحلامِ الكثيرة، حلمٌ يتكرّر أجد خلاله نفسي على مقربةٍ من شقّتي في الحديقة العموميّة، أشقّها كلَّ صباحٍ في طريقي إلى العملِ دونَ أن أتوقّف عندَها، أسرّح بصري في أشجارها العالية والعتيقة، وأراقب خيوطَ الشّمسِ الأولى تصافح العشبَ، فإذا هو لوحةٌ متحرّكة، تنطق بالجمال، ربّما عنّ لي في بعض الأحيان أن أجلسَ إلى مقعدٍ من المقاعدِ المنتشرة في فضاء الحديقة، فأنتشي لمرور النّسائم العليلة على محيّاي، ولكنّني لا أطيلُ المكوثَ، رغمَ استثنائيّة ما كان ينتابني من مشاعر.

في ذلك الحلمِ كنتُ أجدُ ما يعوقني عن الوصول إلى الحديقة، ويحولُ بيني وبينها، كان حشدٌ كبيرٌ من النّاس يقف بيننا عارضًا، فأعودُ محبطةً مذعورةً، أستيقظُ حينَها على ما يشبه الضّوء السّاطعَ، ثمّ إنّني سرعان ما أعود إلى النّومِ، لأرى الحلمَ نفسَه، فأستيقظُ على الضّوء نفسِه في دورةٍ لا تنتهي إلّا بامتلاء غرفتي وجنباتها بأشعّة الشّمس تعلن

عن بدايةِ يومٍ جديدٍ، الأحلامُ في مدّها وجزرها، تهمّ بي ثمّ تغادرُ، كنتُ مستسلمةً لمجيئها ورواحها غير عابئةٍ بالوقتِ، في انتظار النّهار.

أتذكّر أنّه مرّةً أخبرني أنّه يجدر بي أن أتمرّن على رسم مشاهدَ طبيعيّةٍ، وألّا أكتفي بما كنت أرسمه من لوحاتٍ لها صلةٌ بجوانبَ ذاتيّةٍ وبرؤًى خاصّةٍ، دعاني إلى الانفتاح بناتجي الفنّيّ على الحياةِ، وأن أتحدّى نفسي، وأتجاوزَها، فرسمتُ بعض الأشجار الرّابضة في تلك الحديقةِ.

في أثناء اشتغالي على لوحتي الأولى، ظلَّ يتملّاها بتمعّنٍ، مميلًا نظّارتَه إلى الأمامِ، ليقولَ لي: "لا أشجارَ في لوحتك يا بيني، إنّني لا أرى شيئًا منها، لستُ أقصد إهانتك، ولكنّني أدعوك بحبٍّ إلى أن ترسمي بصدقٍ أكبرَ، أن ترسمي ما ترينَه حقًّا".

ما حدث، هو أنّني لم أنتهِ من تلك اللّوحةِ إطلاقًا.

تقلّبتُ وأضأتُ المصباح الخافتَ بجانب السّرير، مرّرتُ يدي على طول ساعدي، فتحسّستُ كدمةً، لا أتذكّر أنّها كانت موجودةً قبل أن أخلدَ إلى النّوم، فمن أين جاءت؟

على الجانب الآخر من الجدار، أسمع الصّوتَ الأوّلَ يقول:

"لا يمكننا التّوقّف عن ذلك الآن".

فيجيبه صوتٌ آخر، كان أكثر خفوتًا:

"أعلم ذلك".

أتوقّف عن تمسيد ذراعي وأرهف السّمعَ، مثلُ تلك الأصوات أصبحت متواترةً تتناهى إلى سمعي من الشّقّة المجاورة بصورةٍ ملحوظةٍ خاصّةً في أثناء اللّيل، لا أعرفُ مصادرَها أو أصحابَها، ولكنّها حقيقيّة، فأنا لا أتوهّم سماعَها، وهي ليست أصواتًا عابرةً للسّيّارات في الخارج، أو لصفّارات الإنذار، أو للباصات، إنّها أصواتٌ

بشريّةٌ لها وقعها الخاصّ على النّفسِ، وقعها الغريب.

وقع خطواتٍ، وصفعة بابٍ، يخترقان السّمعَ بوضوحٍ لا أدري تحديدًا كم السّاعة الآن، أستلقي بعينيْن مفتوحتيْن في العتمة، بصورةٍ تامّةٍ، وأنا بعدُ مستيقظةٌ.

ما الّذي تشعر به الآن؟

بالكاد أسمع الإجابةَ عن ذلك السّؤال، دون أن أميّزَ كلماتها. "لا! لا يمكنك التّفوه بأيّ شيء، خاصّة أمامها".

فردَّ صوتٌ مكتومٌ آخر:

"إنّك لا تستمع إليّ!".

ثمّ يعمُّ الصّمت، أنحني، وأشعل المصباح مجدّدًا، وأدوّنُ ملاحظةً لا تعني أحدًا غيري:

"اسألي مايك عن الأصوات في الشّقّة المجاورة".

فأنهض.

النّعالُ ثقيلٌ، ومحاولةُ السّير به تحولُ دونَها السّجّادةُ، ولكن لا بدّ من ذلك لأتّقي البردَ الّذي يتهدّد قدميّ الصّغيرتيْن، ما أقضيه جالسةً خلال سائر الأيّام يتجاوز بكثيرٍ ما أخطوه من خطواتٍ، أقبع أمام التّلفاز فلا أكاد أبرح المكانَ، وأتناول الطّعامَ، أتملّى يديّ، حيث البقع الزّرقاءُ، والعروق البارزة، والتصاقُ الجلدِ بالعظمِ تمامًا، وانحناءُ أصابعي، وتقوّسها، كما لو أنّها أغصانٌ متشابكةٌ، تكسوها طبقةٌ من الجلدِ، شبيهةٌ باللّحاءِ.

أتحسّر على ما أضعته من فرصٍ، ومن أعمالٍ مؤجّلةٍ، لن يمهلَني

الوقتُ، ولن يكون رحيمًا لأستدرك ما فاتَ، مرّت سنينٌ ليست بالقليلة، في لمح البصرِ.

بعناءٍ شديدٍ جرجرت قدميّ إلى المرحاضِ، ثمّ أبتُ إلى السّرير زاحفةً، لم أقوَ على زحزحة صندوق الفضلات الفارغ من مكانه أسفلَ النّافذة، أتساءلُ عن القطّة متى فارقت الحياةَ دون أن أنتبه لأمرها، لطالما أحبَّت غوركي العناق، خاصّة في الصّباح، يبدو أنّها قضت منذ زمنٍ طويل.

يتناهى إليّ مواؤها بين حينٍ وآخر، من إحدى الغرفِ، إنّه محض توهّمٍ لا غير، منشؤه الوحدةُ وقسوتها، أو هو الحنين، عُلّقت على جدار غرفة النّوم، فوق صندوق الفضلات، لوحتان زيتيّتان، تعرضان منظرين طبيعيّين واسعيْن، من أعماله الأولى الّتي قرّر عدم بيعها لأسباب عاطفيّة تخصّه، كانتا كبيرتيْن للغاية وثقيلتيْن، كبقيّة أعماله، ولا أدري إذا كان حجمهما يكشف عن طموحه ويتوافق معه، هل للبُعد الذي اختاره علاقة بإنجازه؟ إنّهما لا يروقان لي، حتّى إنّني أتجنّب النّظرَ إليهما عادةً، لم أُسرَّ له بذلك، فقد كان شديدَ التّعلّق بهما، لولا العجزُ لأزلتهما من مكانهما، ولكنّهما أثقلُ من أن أجرؤ على المحاولةِ.

في زاوية الغرفة، وعلى الجانب الآخر من الجدار، لوحاتٌ قماشيّةٌ أخرى، أصغر حجمًا من لوحاتي، لم يخطرْ لي طيلة ما مرّ من سنينٍ أن أعلّق أعمالي، بدا لي الأمرُ غير ذي جدوى، ثمّ إنّني لم أكن متيقّنةً تمامًا من اكتمالها، ينتابني إزاءَها إحساسٌ بالنّقصانِ، لا أعرف مصدره، أعاود الاشتغالَ عليْها بالإضافة والتّعديل، مخلصةً، بشغفٍ لا ينقطع، لم تكن غايتي الانتهاء منها، بل استرضاء شيءٍ ما في داخلي، حتّى إنّني لم أكن أفكّر في الآخرين، لم يكن يعنيني إعجابهم، ولا ثناؤهم.

سألني يومًا: "كيف تطمحين إلى صفةِ فنّانةٍ، إذا لم يكن يعنيك الآخرون؟ لا بدّ من عينٍ أخرى، ومن متلقّين، ولا يمكنك إلغاؤهم من حساباتك، ما تنشئينه لا قيمةَ له في غيابهم، فَبِهم يكون أثرك الفنّيّ ذا معنى".

مثلُ ذلك الطّموحِ إلى الشّهرةِ، وإلى ما سيحقّقه عملي من ردود أفعالٍ، ظلّ متواريًا، في مكانٍ ما، وتلاشى بمرور الوقتِ، هناك حاجزٌ بيني وبينه ما انفكّ يكبرُ، لعلّني أرغب في حدوث الأمر عميقًا، ولكنّني لا أجرؤ على مجرّد الحلم بتحقّقه.

بعد أسبوعٍ من وفاته، أخرجتُ صندوقي الّذي يضمُّ منحوتاتي الخزفيّة، تناولتُ إحداها، ووضعتها إلى جانبي، ما زالت كما هي، كانت أولى محاولاتي في النّحت، ولطالما أحرِجت من رداءتها، لقد مثّلت شخصًا من الطّين، يميل برأسه إلى أحد الجانبيْن، التقطتها وتفحّصتها ومسَّدتُها بإبهامي، لم أعترف لأحدٍ بأنني شعرتُ بالبهجة العظيمة في نحتها، بدأتُ أفقد حميميّة ذكرياتي، باتت معظم ذكرياتي بعيدة عنّي وكأنّها لا تخصّني، لم أعد أصدقها من صميم قلبي كما صدّقتها من قبل، فقد غدت خالية من الثّقل الذي كان يترك أثره فيَّ.

إنّه لأمرٌ محزنٌ، أن أرى الوتيرةَ الّتي عشت بها حياتي، بكلّ ما يصبغها من بؤسٍ وتردّدٍ، ألا يفترض أنّنا نزداد وضوحًا بتراكم السّنين والخبرات؟ لو أنّ الزّمنَ يمهلني سأعملُ على تغيير أشياء كثيرةٍ، وعلى تعلّم ما فاتني أن أتعلّمه، سأشتغلُ بصورةٍ مُطَّردة، وسأنشئ رسوماتٍ أكثرَ، لو أنّه يمهلني ستكون حياتي أجملَ وأفضلَ، يا للحسرةِ! كان بوسعي أن أثمرَ فنًّا أعظمَ، وأن أثبت قدمي في عالم الرّسم بما يليق بموهبتي، ولكنّ التّحسّر لا ينفع، فقد فات الأوانُ، ولم يعد الوقت

كافيًا.

أطفئ المصباح، وأعجز عن النّوم، فأبدأ تهويدةً هادئة لنفسي.

كأنّ النّومَ بدأ يعرف طريقه إلى عينيّ، أو هكذا بدا لي، أتلمّس شفتيّ المشقّقتيْن بإصبعي في طريقي إلى غرفة المعيشة، حيث تركتُ التّلفاز مُضاءً منذ ليلة البارحة، كان مكتوم الصّوت، جلستُ ورفعتُ صوتَه حتّى غدا عاليًا، حدّقتُ في الشّاشة، لأرى وثائقيًّا عن الطّبيعة، يعرض حياة الحشرات والمخلوقات الصّغيرة الأخرى.

يقول المذيع بصوته العميق والنّاعم: "رغم أنّنا لا نولي نحلَ العسلِ صغير الحجم، طويل العمر، أيّ أهمّيّةً، فإنّ هذه الكائنات تتميّز بذكاءٍ خارقٍ، وبوسعها إجراء حسابات رياضيّة".

شاهدتُ نحلة صغيرة تمتصّ حبوب اللّقاح من زهرة حمراء، فهرعتُ دون سابق إنذارٍ إلى غرفة نومي، وجدتُ ضالّتي في خزانتي: مجموعة قديمة من الألوان الزّيتيّة ،ما يزال بإمكاني سماع التّلفاز من مكاني هناك:

"يفهم النّحل الحسابات الرّياضيّة، وبإمكانه حلُّ الألغاز البسيطة، والمبنيّة على الحسابات البسيطة."...

لم أفهم الرّياضيات يومًا، لم يتقبّلها دماغي ببساطة، وكأنّها عالمٌ متكامل لم أستطع العيش فيه يومًا.

وجدتُ العلبة منبعجة وقد غطّاها الغبار، أحمل المجموعة في يدي للحظة، متسائلة عن الزّمن الّذي مضى عليها، منذ أن اشتريتها، أجلس، وأفتح إحدى العبوات، لأجد اللّون قد جفَّ، وصار غير صالح للاستخدام، لم أرسم منذ سنواتٍ عديدة، أنحني وأتناول

إحدى لوحاتي من زاوية الغرفة.

هي واحدةٌ من اللّوحات الأخيرة الّتي كنت أعمل عليها، وأنا أتأمّلها وجدتُ أنّني قد نسيتُ أمرها، حتّى إنّني لم أتعرّف إلى الشّخص الّذي يتوسّطها، يُرجّح أن يكون مقرّبًا أو صديقًا من الأزمنة الغابرة، ولكنّني لم أستطع أن أجدَ رابطةً تشدّني إلى اللّوحةِ، ولم أتذكّر الدّوافع الّتي حملتني على رسمها.

كيف لهذا أن يحدث؟

يومٌ آخر يحلّ ليرحلَ مثلَ سابقه، ليلة أخرى من التّقلّب في سريري، أسمع طرقًا خفيفًا على الجدار، بالكاد يمكن تمييزه، لم يتكرّر الطّرق، ولكنّه أزعجني، وأثار هواجسي، فالأصوات ما انفكّت تتزايد منذ مدّة ،وأنا أعجز ما أكون عن تحديدها، لعلّها أسبوع أو أقلّ من ذلك.

بدا لي أنّني المعنيّة بالطّرق، فكأنّني بالسّاكن في الشّقّة المجاورة يريدُ أن ينبّهني إلى أمرٍ، أنحني وأردّ عليه بطرقٍ خفيفٍ، ولكنّ الصّمتَ يعمّ، فأعاود الطّرق بقوّةٍ أكبرَ، عساه يردُّ دون جدوى، لم أتمالك نفسي عن السّعال في تلك اللّحظات، فقد باغتني دون رحمةٍ.

ارتديتُ نعالي، وبالكاد وصلتُ إلى المطبخ وأنا أسعل بلا هوادةٍ، مستندةً إلى المنضدة، ملتفّةً، أبصق في الحوض كلّما هدأ السّعال فيتدلّى خيط من اللّعاب من شفتي السّفلية.

أجد حبّة بطاطا جوار الحوض، لا بدّ أنّها ظلّت هناك لأسابيعَ عديدة، أو لشهور، لعلّي أخرجتها لطهوها، ولكنّها اليوم تتبرعم، لقد نشأت حياة مُغلقة في تلك البطاطا، بعد دخولها في سبات عميق، سينمو ذلك البرعم، وسيبدأ في الاتجاه نحو النّافذة، حيث الضّوء، وسيميل إليها كلّما نما.

وأنا أعدّ الشّاي هذا الصّباح استمعتُ إلى مقابلة على الرّاديو مع إحدى المُحاضِرات المتخصّصات في دراسة الأحياء النّباتيّة، ذكّرني حديثها بوالدي الّذي كان مولعًا بالطّبيعة وعلوم الأحياء، كان يحدثني زمن الطّفولة أحاديثَ طيبة عن الأشجار والنّباتات، وعن روعتها

ومتانتها وقوّتها.

أدنو أكثر من الرّاديو وصورة والدي لا تفارق ذاكرتي، كانت المتخصّصة تروي تجربة نموٍّ نبتتيْن معًا، وعن قدرة خلايا أيٍّ منهما على استقبال القدر الّذي تحتاجه من الحمض النّوويّ الخاصّ بالنبتة الأخرى، كان ذلك مذهلًا، فاستمعتُ بجدّيّةٍ جافلة في مكاني، تابعت المحاضِرة حديثها، تشرح أنَّ من الطبيعيّ حدوث النقل الأفقي للجينات بين البكتيريا والفطريّات وحتّى النّباتات، وأن هذا يحدث عندما يصدِّر الكائن الحيّ المادّة الجينيّة إلى كائن آخر دون أن يكون من نسله.

تشق النّبتة طريقها إلى الحياة مهما كلّفها الأمر، قرّرتُ أن أدوِّن كلماتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

النّقل الأفقيّ للجينات.

تستمرُّ الحياة بأيِّ ثمنٍ.

أخذ الهاتف المثبت على الحائط بالرّنين حالما وضعتُ قلم الرّصاص جانبًا، فجفلتُ لأنّه نادرًا ما يرنّ، لا سيَّما في هذه السّاعة المتأخّرة، سرتُ خطواتٍ حيث الهاتف جانب النّافذة، ولكنّه توقّف حال وصولي عن الرّنين، فتسمّرت في مكاني أرمق الشّارع المظلم لأرى شخصيْن يعبرانه يرافقهما كلبٌ، وسيّارةٌ يتيمةٌ تشقّه.

شدّ نظري بعدَ هنيهةٍ مرور أحدهم يرتدي قبّعةً ومعطفًا، كانت ملامحه مبهمةً، توقّف فجأةً في سكونٍ تامٍّ، دنوتُ أكثر من النّافذة لأتبيّن شخصَه، كان في مكانه يحدّق في شيءٍ ما غير عابئ بما حوله.

بدا لي في غير شكٍّ أنّه يركّز بصره على نافذتي، بل إنّني كنت المعنيّة بنظراته، كان هدوؤه مثيرًا، ورصينًا، حتّى إنّني لم أشعر إزاءه بأيّ نوعٍ

من أنواع القلق، أو الرّيبة، رغم أنّه كان يراقبني، وينتهك خصوصيّتي، أبتعد قليلًا عن النّافذة متّقية انعكاس أضواء السّيّارات، وأعودُ إليها، فلا أجد أحدًا.

في معطفي الصّوفيّ الفضفاض أنتصبُ واقفةً، ثمّ أنحني قليلًا لأتأمّلَ لوحةً لي غير مكتملة، ورغمَ أنّها من خالص أعمالي فإنّني لم أشعر إزاءَها بأيّ انتماءٍ، أطيلُ فيها التّحديق، فأجدها غريبةً عنّي، وتناهى إلى سمعي في الأثناء طَرقٌ على الباب كان مفزعًا ومباغتًا.

سرتُ خطواتٍ جهة المدخل الأماميّ، ثمّ نظرت من ثقبٍ في الباب، فإذا هو رجلٌ أصلعُ بزيٍّ أزرقَ يحملُ صندوق العدَّة إلى جانبه.

قلتُ عبر الباب المقفل: "نعم؟".

"إنّي هنا للصّيانة".

"ولكنّي لم أطلب أحدًا للصّيانة".

رأيته يدور بعينيه، قائلًا: "لقد جُدول هذا لأسابيع قادمة".

لم أدرِ ما أفعل غير فتح القفل، ثم فكِّ السّلسلة، وسمحتُ له بالدّخول، وضع حقيبته الجلدية إلى جانبه، وطاف ببصره في الغرفة.

"إنّه تجديد روتينيّ، نقوم به في الشّقق السّكنيّة جميعها."

قلتُ: "توجّب على مايك أن يخبرني بهذا، يجب أن أكون على علمٍ مسبق".

"توجّب عليه إخبار الجميع".

قلتُ سريعًا: "يبدو أنّه لم يخبر أحدًا."!

بدأ يخرج بعض أدواته، وسألني:

"ألديكِ منفذ في غرفتك؟".

قلتُ: "بالقرب من السّرير، وهناك آخر في المرحاض، ولكن أرجو

ألا تمسَّ شيئًا هناك".

قال: "اطمئنّي لن أفعلَ، ما هي إلّا لحظاتٌ وأعود".

تركني واقفة في غرفة المعيشة، فاقتربتُ من الجدار، واستمعتُ إلى ذلك الغريب الّذي يُعمل أدواته في غرفة نومي، سمعتُ حفرًا ودقًّا خفيفًا، وحال عودته، بدأ يجمع أدواته من جديد.

قال: "لا يزال هناك مُشعّ حراريّ، فهل يعمل بصورةٍ جيّدة؟. يبدو لي الجوّ باردًا هنا".

"المُشعّات الحراريّة؟".

"أجل".

"إنها تعمل بصورة جيّدة"، ثمّ سألته: "أكان ذلك أنت؟ أكنتَ تقف في الشّارع، في ليلةٍ ماضيةٍ؟".

يتوقف عن عمله، وينظر إليَّ.

"الشّارع؟".

"أكنتَ أنت؟ في الخارج... تراقبني؟".

قال: "جئتُ هنا لإصلاح منافذ منزلكِ، ولا أريد أيَّ مشكلات."

سألتُه مشيرة إلى الجدار الّذي يفصلني عن الشّقة المجاورة: "هل مررتَ بتلك الشّقة؟".

"انتهيتُ منها قبل شقّتكِ".

"هل تحدّثت معهم؟".

"تحدّثتُ مع من؟".

"مع المستأجرين".

"ما من أحدٍ هناك، إنّها شقّة شاغرة، اسمعي، لديّ الكثير من الشّقق لأنتهي منها".

فأشعر بوجهي يتورَّد.

"هل أنتِ بخير؟ هل هناك من يطمئنّ عليكِ بين الحين والآخر؟".

أجبته بعد هنيهةٍ :"أنا... بخير".

"حسنٌ، عليك الاعتناء بنفسك سيّدتي".

اقتفيت خطاه وهو يغادر، فإذا هو يصل الرّدهة دونَ أن يتوقّفَ عند أيِّ باب آخر من أبواب الشّقق، انتظر المصعد في نهاية الرّدهة، دون أن ينظر خلفَه.

أدركتُ عندئذٍ أنّني سهوتُ عن أن أطالبه بما يثبت هويّته، كان يجدر بي أن أفعلَ مع طارقٍ غريبٍ، ركعتُ على أرض غرفة نومي، متفحصة أحد المنافذ الجديدة المثبتة، بدا لي مطابقًا للمنفذ السابق.

لم أجد اختلافًا بينهما، هل بدَّل حقًّا أي شيء هنا؟

إن لم يبدِّل المنفذ، فلِم دخل إلى شقّتي؟ ما الّذي كان يفعله في غرفتي؟

أجلس إلى الأرض وبين يدي شريطٌ لاصق، جبهتي متعرّقة، جرّاء ما بذلته من جهدٍ لإلصاق قطعة من الشّريط على المنفذ الجديد، ومن ثمّ على المنفذ الآخر، الّذي غطيته بالكامل، غدت المنافذ مغطاة كلّها بالشّريط اللاصق.

أنهض من مكاني، وألِج المطبخ، لستُ جائعة، ولكنّني أعتقد أنّني لم أتناول الطّعام اليوم، أجد آخر علبة من الحساء الأحمر، وأتمكّن من فتحها دون عناء، ومن ثمّة سكبها في وعاءٍ على النّار، أملأ العلبة الفارغة بالماء، وأسكبها على المزيج، وأنا أنتظر أن يسخن العشاء بدأ مصباح المطبخ اليتيم بالرّمش، ثم احترق تمامًا، ولم ألحظ أنّ العتمة تحلُّ المكان في الخارج، نظرتُ إلى المصباح في الأعلى، ودفعتُ كرسيًّا أسفله، لا يجدر بي فعل ذلك، أعلم هذا جيّدًا، بل يجدر بي انتظار قدوم مايك لأداء هذه المهمّة.

أصعد الكرسيَّ ببطءٍ، منهكةً، فقد تطلّب منّي الأمرُ أن أسند قدمي إلى الجزء الخلفي منه، أمدُّ يدي نحو المصباح، فتغدو ذراعي قبالة وجهي، بدت لي غريبةً عنّي كما لو أنّها ذراع شخصٍ آخرَ، صرتُ قابَ قوسيْن أو أدنى من المصباحِ عندما سقطتُ فجأةً، وارتطمت جبهتي بالمنضدةِ.

أختنق، وأجد صعوبةً في أن أتنفّسَ، أحاولُ التّخلّص ممّا أنا فيه، فأستشعر ضراوة الألم على جبهتي، أستلقي على أرضيّة المطبخ، وعلى النّار بقبقة الحساء.

ظللت طريحةَ الأرض، لا أعي ما يحدث من حولي، وكم استغرقَ الأمرُ، لقد أُغمي عليّ دون شكٍّ، واستبدّ الألم بجسدي، حتّى إنّني لم أقوَ على النّهوضِ.

أتحسّس رأسي، فإذا بجرحٍ عميق أعلى جبهتي، أسند رأسي إلى كفّيّ، وأستسلم للوجعِ.

لا أعرف على وجه التّحديد مقدارَ الزّمن الّذي كنت فيه غائبةً عن الوعي، ربّما مرّت ساعة أو أكثر من ذلك، في رأسي نبضٌ مدوٍّ، وبدا لي أنّ الدّماء جفّت، العتمة تمسح فضاء المطبخ، لعلّه منتصف اللّيل، رائحة الحساء المحترق تخترق أنفي، نظرتُ أمامي، فتراءى لي خطبٌ ما في غرفة نومي قبالة المطبخ، هناك حركةٌ لم أتبيّنها بما يكفي من الوضوح، ركّزت بصري على أسفل الباب المغلق، فلاحظت أضواء متبدّلةً، هناك شخص ما داخل غرفتي، وهذا مفزعٌ.

فشلت في أن أنهض من جديد، ووقعت على صدري، صار يجدر بي طلب المساعدة، أحدهم في غرفتي، ولا أدري هل أطلب نجدته، أم أتوجّس منه.

استبدّ بي الخوف وأنا أتساءل عمّن تُراه يجول بغرفتي، هل جاؤوا لمساعدتي، لا، لا أعتقد ذلك إذ كان جديرًا بهم أن ينقذوني، اخترت في النّهاية أن أكتم صوتي، وأن أحاول ما استطعت التّخلّص من مأزقي.

هناك صرير، ووقع أقدام خفيف، كأنّي به صوت كعب عالٍ، وهناك خطوات تغادر غرفة نومي، وتصوّب نحوي.

واصلت الزّحف حتّى توسّطت المسافة الفاصلة بين المطبخ وغرفة المعيشة، حيث توقّفت عن كلّ حراك.

أفتح عينيّ على رجلٍ يحوّم حولي، ضوء النّهار يملأ الغرفة، وملامح الرّجل مألوفة، إنّه هو، مايك، مالك العقار، لم يكن ذقنه حليقًا، بقميصِه الأبيض المعتاد، أهو نفسه الشّخص الّذي رأيته يجول في غرفتي؟ لست أدري.

ينحني مايك ويحدّثني، ولكنّني لم أكن أستطيع سماعه، كانت كلماته مكتومةً، وبعيدة للغاية.

"بيني... يا بيني؟ هل تسمعينني؟".

يضع يده على كتفي.

"اللّعنة! بيني، لا تفعلي هذا بي".

أفتح عينيَّ على اتّساعهما، وأحاول الانقلاب على جانبي.

قال: "جيّد، هذا جيّد، إنّكِ بخير، هيّا، سأساعدكِ على النّهوض".

الجزء الثاني

في سيّارة مايك الّتي تنبعث منها روائحُ بغيضة، أجلس متقوّسة الظّهر حريصة على ألّا أتحرّك، وألّا ألمس شيئًا، كان يقودُ السّيّارة على غير منهجٍ، ينحرفُ بها ميمنة وميسرةً، وتسير متعرّجةً في مسالكَ ضيّقةٍ، يدخلُ طريقًا، وسرعان ما ينعطف بنا إلى آخر، يحشر السيّارة في زحمة المرور، ثمّ يغادر، ينطلق تارةً، ويتوقّف أخرى، لم أعد أحتملُ الأمرَ، وانتابني إحساسٌ بالغثيان، وعلى حافّة مقعدي وجدتُ بقعًا من الشّحم، وأمّا الجليد العالق بجزمتي فقد ذاب على سجّاد السّيّارة.

تلهّيتُ في الأثناء بالنّظر إلى الشّارع المزدحم بالنّاس، وبالعرباتِ، وإلى المدينة الّتي أنفقتُ فيها سنين حياتي، أتحسّس بيدي قشرة الجرح على جبهتي، فأجدها ملساء.

لم يتطلّب فراقُ الشّقّة الّتي عشتُ فيها عقودًا كثيرةً إلّا أيّامًا معدوداتٍ حزم خلالها مايك أغراضي، ووضعها في المخزنِ. طلب منّي أن ألزم السّرير؛ حتّى يتمكّن من ترتيب أغراضي بطريقة أفضل في الشّقّة، مستعينًا بعددٍ من الحمّالين، كنتُ أسمع الجلبةَ كلّما استيقظت فزعةً من نومي، دونَ أن أنبس ببنت شفةٍ. كانوا يضعون الأغراض في أكياس القمامة وفي الصّناديق، وكانت أحاديثهم وضحكاتهم تقضّ مضجعي، فضلًا عن الأصوات الّتي تنشأ عن قطع الأشرطة اللّاصقة، وعن المكنسة الكهربائيّة، وعن ترتيب الصّحونِ.

دنا منّي رجلان غريبان قصدَ الاطمئنان في تلك اللّحظات على جرحي، وسمعتُ أحدهما يؤكّد لصاحبه أنّني أفضلُ حالًا، قبلَ أن تمتدّ

يده لإزالة الضّمّادة، ما تبقّى من الأغراض تمّ حزمه صبيحةَ هذا اليوم، نطّ إلى ذهني أنّني لم أستحمّ منذ سقوطي، وبدا لي الأمر مقرفًا.

سألت مايك: "ما الّذي يحدث بربّ السّماء، وإلى أين نمضي؟".

"أحسبُ أنّنا قد تحدّثنا في الأمر يا بيني، ولا فائدة من تكراره الآن، لقد فات الأوان".

"عمّ تتحدّث؟".

"تعلمين جيّدًا أنّ بقاءك وحيدةً في شقّتك أمرٌ يتهدّد حياتك وسلامتَك في هذا العمر، ولا يجبُ أن يستمرّ هذا الوضع إلى الأبد".

قلتُ: "أنا بخيرٍ، لم أشكُ وحدتي لأحدٍ، هي لا تزعجني في شيءٍ، على العكس من ذلك تعوّدتها وأستحبّها".

قال: "لا يا بيني، لست بخير إطلاقًا، فلو لمْ أنتبه لما أصابك لكنت...."

مدّ يده فجأةً إلى ملفٍّ على ذراع المقعَد، وسحبَ منه ورقةً، ثمّ جعلها في حضني، كانت تحملُ صورةً لمنزلٍ قديم تحيط به الأشجار.

"أنتِ محظوظةٌ دون شكٍّ، فنادرًا ما يحظى من هم في مثل وضعك بفرصةٍ من هذا القبيل، قبلَ وفاته سلّمني الأوراقَ تحسّبًا لما حدسَ حدوثَه، وقد كان محقًّا".

"ما الّذي تقصده؟".

"أقصد المكانَ الّذي اخترته لِما يميّزه من مظاهرَ طبيعيّة خلّابةٍ، أراد لك أن تظلّي في الشّقّة لأطولِ مدّةٍ ممكنةٍ، وأن تنتقلي إلى المكان الجديد عندما تسوء الأمور...".

"تسوء الأمور؟".

"أي عندما يتعذّر عليك البقاء وحيدةً، يتعيّن عليّ في مثل هذه الحالة

نقلك إلى المكان المعنيّ، وفقًا لاتّفاقكما، هل نسيت؟".

ركّزت نظري على الصّورة، ولم أتذكّر من أمرها شيئًا، مثلما أنّني لم أتذكّر أيّ اتّفاقٍ من ذلك القبيل.

وتساءلت في حنقٍ: "إلى أين تحملني؟ عن أيّ منزلٍ تتحدّث؟ إنّه بيتٌ قديمٌ خربٌ، لا حاجةَ لي بهذا كلِّه، ولست بالعاجزة، ولا العليلة ...أعِدني إلى شقّتي". مكتبة سُر مَن قرأ

"ليسَ المكانُ منزلًا قديمًا كما تتصوّرين، إنّه في واقع الأمر دارٌ لرعاية المسنّين، ستجدين فيها ما تحتاجينه من عنايةٍ، ستنال رضاك، وستكونين في مأمنٍ".

"لا أتذكّر أنّه حدّثني بمثل هذا الزّعم، ولا أحسبني أنسى أمرًا بهذه الجسامةِ، ثمّ إنّك لم تنذرني من قبلُ، كان عليك أن تخطرني علمًا كي أتهيّأ للأمرِ، لا أريد مغادرة الشّقّة، لا أستطيع أن أعيش خارجها، إنّها عالمي".

"بيني، لقد أخبرني أنّ هذا خِيارك."

يعاودني الألم في جبهتي، فأصمت.

"الخيارُ في تقديري حكيمٌ وجميلٌ للغاية، ولو أنّك لم تخطّطي للأمر من قبلُ، ولم تودعي مالك فيه، لكنت اليوم في مأزقٍ، تنتظرين دورك في إحدى القوائم".

"لا حاجةَ لي بعناية الآخرين، أنا قادرةٌ على الاهتمام بنفسي، وأحبّ عزلتي، وحتّى لو افترضت صدقك، فقد كان عليك أن تعلمني مسبقًا."

"ولكنّني فعلتُ ذلك يا بيني، لقد ذكرتُ لكِ ذلك في مناسباتٍ متكرّرةٍ".

ولّيت وجهي عنه ،وأَجَلتُ بصري في المقعد الخلفيّ المنعكس على المرآة الجانبيّة، مشهدٌ مؤلمٌ لحقيبتيْن ،ولبضعة صناديق، وللوحاتٍ، إنّها أغراضي الضّروريّة والأهمّ، أغراضٌ تكاد تختزلُ حياتي، أشعر بالحرّ في تلك الأثناء، فتمتدّ يدي لفتح النّافذة، ولكنّ الزّرّ معطوبٌ، ألتفت يسارًا حيث ملفّ مايك الّذي كان مشغولًا عنّي بالتّحديق في الطّريق أمامَه.

أسندتُ رأسي إلى النّافذة بعدَ أن غادرت السّيّارةُ المدينة، واتّخذت سبيلَها، كنت أشاهد الطّريق ممتعضةً صامتةً، وكان كلّما تقدّمت يزدادُ ضيقًا، فلم يعد يتّسع إلّا لسيّارتيْن اثنتيْن.

صرنا على مقربة من منطقةٍ ممتلئة بالتّلال، وبالجبال، تصطفّ فيها الأشجار على جانبيْ الطّريق، وكانت باسقةً مختلفةً تمامًا عن تلك الّتي كنت أمرّ بها في حديقة الحيّ.

وفضلًا عن طولها الملحوظ فقد كانت ضاربةً في القدم، طالَ صمتنا زمنًا ليس باليسير، ولم يكسره إلّا الصّوت المنبعث من الهاتف يُملي عليه الاتجاهات: "وجهتكَ إلى اليمين".

عند نهاية طريقٍ ضيّقٍ توقّفنا، كان زقاقًا قذرًا، يفضي إلى غابةٍ كثيفةٍ، وما إن فتح مايك النّافذة حتّى تناهى إلى سمعي صفير عصفورٍ لامس شغافَ القلب، وكان الصّمت يخيّم على المكان، بشكلٍ مذهلٍ لم أخبرْه من قبلُ.

شغّل مايك محرّك السّيّارة من جديدٍ، وتابعَ طريقَه، لأرى المزيد من الأشجار على جانبي المسافة، ولنصلَ بعد وقتٍ وجيزٍ إلى منزلٍ حجريٍّ رابضٍ على إحدى التّلالِ، كان كبيرًا، وبدا لي أنّه أشدّ قدمًا ممّا هو في الصّورة، وكان عاديًّا غير مميّز، يحيط به سياجٌ متين من الجانبيْن، وتتقدّمه لافتةٌ خضراء خربة، لم أميّز ما كُتب عليْها.

توقف مايك في موقف السّيارات.

قال: "هيا بنا".

لم أكن أرغب في مغادرة السّيّارة، اشتدّ بي الحنين إلى شقّتي وإلى مدينتي، لا أريد من العالم إلّا أن أستلقي إلى سريري رغمَ بساطته، والجلوس إلى مقعدي المحبّب، فركتُ ركبتي العليلة بيدي، وشعرتُ برأسي ينبض ألمًا، التفتَّ إلى حيث بابي، وساعدني على النّهوض، ثمّ ظلَّ متشبثًا بذراعي في طريقنا إلى الباب الأماميّ، حاولتُ رفع كتفيَّ قدر الإمكان، لم يكن الطّريق إلى الباب ممهّدًا، بل توجّب عليَّ الانتباه إلى خطواتي كي لا أتعثر، اقتربنا من الباب حتى تمكنتُ من قراءة اللافتة الخضراء:

"دار أشجار الأرْز السّتّ للرّعاية".

تعرّقت راحتا يديّ، وأصدر قفل الباب طقطقةً، همّ مايك بفتح الباب، ورمقني خلفَه بنظرةٍ، لاحظ تردّدي فقال:

"ها قد وصلنا".

في المسافة الفاصلة بين الباب والبهو، ساعدني مايك حتّى أحافظَ على توازني، من الممرّ الحجريّ إلى أرض الخشب الصّلب، بدا لي المكان من الدّاخل أكثر جدّة ونضارةً ممّا يبدو عليه من الخارج، ولفت انتباهي أوّل حلولي بالمكان طاولةٌ مستطيلة الشّكل، وُضعت عليها باقة زهور يانعة، وقد أحاط بها مقعدان من الجلد.

يقترب مايك أكثر، فأسمع موسيقا ما، إنّه صوتُ كمانٍ خافتٌ .

نادى مايك:

"مرحبًا؟".

ثمّ انحنى على الطّاولة قبل أن يدقّ عليها بقوّةٍ، حاولت في الأثناء أن أستوعبَ ما يجري، وأن أفهم طبيعة هذا المكان، تناهى إلى سمعي وقع خطواتٍ على الدّرج الخشبيّ يسار الباب الّذي دَلَفنا منه، وقع بصري على امرأةٍ ممشوقة القوام في فستانٍ أحمر، رفعت شعرها الطّويل، وسرحته بعناية إلى الخلف، بدا لي أنّها في العَقد الخامس من عمرها، أو هي أكثر من ذلك بقليلٍ.

وهي تبتسم قالت: "لا بدّ أنّكِ بيني".

كانت على قدرٍ من الجمال لا تخطئه العين، لطيفة إلى حدّ كبيرٍ، وفي صوتها دفءٌ، امتدّت يدها لتصافحني، لألاحظ في الحين جمالَ أظافرها، وروعة طلائها المنسجم مع تدرّجات فستانها وأحمر شفاهها.

قالت: "تشرفتُ بمعرفتك".

انتهت المصافحةُ، ولم أعرف للحظة ما يتوجب عليَّ فعله أو قوله.

أردفت المرأة: "أنا شيلي، لقد كنّا في انتظارك".

يضع مايك الحقيبة الّتي كان يحملها، ويقول: "بقيّة الأغراض في السّيّارة".

رمقته السّيّدة الجميلة المدعوّة شيلي، قالت: "أنت مايك، صحيح؟ أشكرك جزيل الشّكر على إنهاء التّرتيبات".

يقترب قطٌّ من مايك، ويطوّف حوله، فيبعده.

"أرسلتُ إليك الأوراق المطلوبة جميعها، انتهينا إذًا من كلّ أمرٍ، صحيح؟".

"أجل، أجل، انتهينا من الإجراءات كلِّها."

"هل ستحتاجينني في أمرٍ آخر؟".

"لا، كلّ شيء على ما يرام".

وما إن أنهت حديثها حتّى ظهر أمامنا شابّ هبط الدّرج ذاته بهدوء، كان نحيفًا، بل هزيلًا، وأقلّ منها طولًا، يرتدي قميصًا وبنطالًا أبيضيْن، وكأنّه موظّف في مستشفى.

قالت: "سيُحضر جاك بقيّة أغراضها من السّيارة".

وبإيماءة بسيطة، يُدخل جاك الرّمز على اللّوحة المعلّقة جوار الباب، ويتّجه إلى السّيارة، تاركًا الباب مفتوحًا خلفه. يخفض مايك صوته، ويتوجّه بحديثه إلى المرأة، ولكنّني تمكّنت من سماعه:

"يقلقني أمر سقوطها، ولكنّني لستُ مسؤولًا عن مراقبتها كلّ ساعة ويوم، فلديّ الكثير لأقلق بشأنه، اقتضت الخطّة أن أحضرها إلى هنا عندما تسوء أمورها، وهذا ما فعلتُه، إنّي مسرور؛ لأنّ شيئًا جللًا لم يحدث".

تبتسم المرأة من جديد وتقول: "لقد فعلتَ عين الصّواب، إنّها هنا

في مأمنٍ من كلّ مكروهٍ، يمكنك زيارتها متى شئت".

ثمّ تقدّمت شيلي، والبسمة لا تفارق محيّاها، وصافحت مايك، كانت يداها أنيقتيْن وقويّتيْن، كانتا جميلتين، ولم أستطع إزاحة ناظريَّ عنهما، التفت مايك إليَّ من عند الباب قائلًا: "حسنٌ يا بيني، أراكِ لاحقًا".

سألته: "إلى أين تذهب؟".

"عليَّ العودة إلى العمل، صار بإمكانكِ البقاء هنا".

"لماذا تفعل هذا؟".

لا يجيبني، وأشعر بالرّاحة الّتي اعترته لتخلّصه من مصدرِ إزعاجٍ له.

انتظرت شيلي صعود مايك سيّارتَه وتشغيلها قبل أن تعود إليَّ، وتقدِّم لي ذراعها قائلة: "هيّا بنا، يا عزيزتي، سأصحبكِ إلى غرفتكِ".

تقودني شيلي إلى الرّدهة، كانت الأرضيّة مقدودةً من الخشب الصّلب، وسمعتُ أنين الكمان في الأعلى، قالت لي: "هذا بيت، ستقابلينه فيما بعد، إنّه أقدم النّازلين، ورغم أنّه لم يعد يتحدّث كثيرًا، فإنّه يحبُّ العزف".

مررنا بنافذة ضخمة، فاقتربتُ منها، لأرى المزيد من الأشجار تملأ الأفق البعيد، وقد تمايلت غصونها بلطفٍ في مهبِّ الريح، كأنها تلوِّح لي.

قالت: "منظر جميل، أليس كذلك؟ لطالما أحببتُ الطّبيعة، كما أنّ المكان هنا، وسط الغابة، آمن ومُسالم".

اقتربت خطوة منّي، وتابعت: "وبسبب ما يحيط بنا من تلالٍ ومنحدرات خطرةٍ، فإنّنا لا نسمح للنّازلين بالخروج من دون مرافقين، حرصًا على سلامتهم، كما أنّ مظهر الغابة من داخل الدّار مذهل للغاية".

نواصل السّير عابرين منطقة جلوسٍ مريحة، بها طاولة ومقعدان مرتّبان بعناية، عليهما وسائد أنيقة.

"يمكنكِ زيارة أيِّ مكانٍ في الدّار بيني، فهناك غرفة مشتركة للجميع، وصالون صغير لتصفيف الشّعر، نقدّم الوجبات في غرفة الطّعام، ورغم أنّ الدّار بُنيت عام 1843م، فقد جدّدناها بالكامل".

نسير ببطء وحذرٍ، ويدي مستقرّة على ذراعها، قالت: "سرعان ما ستشعرين أنّ هذه الدّار بيتك الخاصّ، أعدكِ بذلك".

تلفت انتباهي لوحة معلّقة على الحائط، فأتوقّف عندها، تبدو مألوفة لي، إنّي أعرفها جيّدًا.

قالت: "لدينا الكثير من الأعمال الفنّية هنا، قدَّرتُ أنّكِ ستكونين ممتنّة لذلك".

حياة ساكنة، ومائدة مملوءة بالطّعام، محارٌ وليمون نصف مقشّر وعنب، قلتُ: "إنّها لِدي هيم[2]."

قالت شيلي: "تعرفينها إذًا؟ ربّما لا يجدر بي أن أتعجّب من ذلك، من الجميل أن نحظى بفنّانة بيننا".

فأرفع نظري إليها، وأتساءل، أكانت تعلم أنّني أرسم؟

قالت: "ولكن لا تصيبكِ المسرَّة العظيمة، فهي مجرّد طباعة عنها، وليست اللّوحة الأصليّة".

قلتُ: "إنّ الأمور تجري سريعًا، لم أتوقّع يومًا أن أكون هنا، لديّ شقّتي الخاصّة، وأريد العودة إليها".

"من الطّبيعيّ ألّا تألفي المكان من الوهلة الأولى، ولكنّك حتمًا ستشعرين بالانتماء، وستحبّينه، ودعيني أسرّ لك بأمرٍ يا بيني، إنّ شعورًا يتملّكني بأنّني أعرفك من قبل، لا أعرف مأتاه، ولكنّه صادقٌ وحقيقيٌّ".

"حقًّا؟".

"أجل، لدينا الكثير من التّفاصيل عن حياتك، ولطالما تُقت إلى

(2) أي للفنان جان ديفيدز دي هيم. (المترجمة)

مقابلتك، من الرّائع أنّكِ أخيرًا بيننا".

أذكر حديث مايك بشأن خطّتنا في اختيار هذا المكان، وإيداع أموالي فيه لحجز مكانٍ خاصّ، وأنّنا اخترناه لأنّه في منطقة هادئة، خارج المدينة، ووسط الطّبيعة، أتساءل إن كان، قبل وفاته، قد أرسل لها معلوماتٍ عنّي وعن حياتي؟ فأنا على يقينٍ من أنّني لم أرسل شيئًا، لعلّه مايك إذًا؟ ما الّذي تظنّ أنّها تعرفه عنّي؟

نتابع السّير حتّى نصل إلى بابٍ بلونٍ أحمر.

"ها قد وصلنا".

تدخلُ أوّلًا، وأتردّد أنا عند العتبة، قالت: "لا بأس يا بيني، استغرقي من الوقت ما تشائين".

أخطو إلى الدّاخل، فأجد الغرفة نظيفةً ومشرقةً ودافئةً، كان السّرير الكبير بمقاس كوين[3]، وبلحاف سميك، جعلني أتوق إلى سريري المتواضع والمزدوج.

أجد مقعدًا قابلًا للتّمدّد في الزّاوية، مصباح، خزانة ملابس ومكتب، وهناك نافذة ضخمة على الجدار البعيد، تُطلّ على الغابة اللامتناهية.

لم يكن هناك أيُّ فوضى أو غبار أو حليٍّ تافهة، بل كانت الأسطح جميعها لامعة، ما جعلها مختلفة تمامًا عن شقتي.

"جميلة، أليست كذلك؟".

إنّها مُحقة، فالغرفة جميلة، وكأنني أشعر بثقلٍ انزاح عن ظهري، لتخليصي من التفكير في تلك الأشياء كلّها، فلم تكن هناك بقايا لأي

---

(3)أي بحجم 150 \ 200 سم. (المترجمة)

شيء يورّث فيَّ حسَّ الالتزام أو الواجب، خطر لي أنّني لن أكون مسؤولة عن أيّ شيء هنا، لا عن صيانة الأشياء أو تنظيفها، ولن أعبأ بالغسيل والتسوّق ودفع الضّرائب وتغيير مصابيح الإضاءة، لم يكن عليَّ اتخاذ قرارٍ بخصوص أيّ من تلك الأمور.

برفق أمسكت شيلي بيدي واجلستني على المقعد، كانت تخشى عليّ السّقوط، قد تكون ركبتي عليلة، ورأسي يؤلمني، ولكنّني لا أحتاج إلى هذا الاهتمام المبالغ فيه.

لا يشبه هذا المقعد مقعدي الخاصّ، لا بدّ أنّه جديد، قد أكون أوّل من جلس عليه، غرقتُ فيه، وشعرتُ أنّني سقطتُ في عناقه، دخل جاك، الرّجل النّحيف ذو الثّياب البيضاء، حاملًا صندوقًا.

أخرج بعض الملابس، وعلّق بعضها، وطوى بعضها الآخر في الخزانة، لا أتذكّر أنّني قد حزمت أغراضي في هذا الصّندوق، أهو مايك إذًا؟ ومع ذلك فهي جميعها هنا، أنظر حولي في الغرفة مجدّدًا، وأدرك أنّني في مكانٍ رائعٍ لم أعرف له مثيلًا طيلةَ ما مرّ من حياتي.

يغادر جاك، ونظلّ وحدنا مجدّدًا، أنا وشيلي.

قلتُ: "لم أطلب هذا كلّه، يمكنني العناية بنفسي".

قالت: "أعلم ذلك".

"ولماذا أنا هنا إذًا؟"

قالت: "لأنّكِ اخترتِنا يا بيني، أنتِ وزوجكِ".

"لم نتزوّج قطّ".

"كنتِ تعيشين مع رجلٍ ما."

"نعم، عشتُ معه لسنوات عديدة".

"كانت هذه آخر هداياه لكِ، لقد تواصل معنا، ورتّب الأمور

جميعها، أراد أن يحرص على راحتكِ قدر الإمكان، لقد امتلكتها بصيرة يفتقر إليها الكثيرون".

"هل دفع المال لهذا كلّه؟"

"ليس عليكِ أن تقلقي بهذا الشّأن، فدار أشجار الأرز الستّ لا تهدف إلى تحقيق الرّبح العظيم، إنّنا نمارس عملنا لأنّنا نُحبّ خدمة الكبار، فهذا يسرُّنا".

"ولماذا لم يذكّرني مايك بذلك؟".

"لقد كان يطلعنا كلّ حين على حالتكِ".

"ولِمَ قد نختار هذه الدّار دون غيرها؟ لِم لمْ نختر مكانًا أقرب إلى المدينة؟".

"لأنّ دارنا صغيرة، وفي جنباتها السّكينة والهدوء، أنتِ تحبّين المناظر الطّبيعية، أليس كذلك؟".

"أحبّها حتمًا، وقد كان يبهجني السّير إلى الحديقة العامّة القريبة من شقّتي".

"إذًا، فخياركما صائبٌ، ستُحبّين العيشَ هنا، سنكون عائلةً واحدةً متحابّةً ومتعاونةً، أشارككم السّكن هنا عزيزتي، وكذلك جاك".

يعود جاك وفي يديه حقيبتان تخصّانني.

قالت له: "أشكرك يا جاك، سأجمع بقيّة النّزلاء، يمكنك أن تحلَّ محلّي هنا رفقةَ بيني".

أومأ برأسه، فخرجت شيلي تحيّيني: "أراكِ قريبًا يا بيني".

أشاهده يرتّب المزيد من الأغراض، بذراعيه الممتلئتيْن، بما في ذلك صندوق لوحاتي القماشيّة.

يضعها جميعها في خزانتي، بعد أن ينظر إلى كلٍّ منها للحظة،

ويتوقّف عند بعضها يُمعن النّظر.

قال: "هذه لوحات ممتازة، من الرّائع أن أرى بعضًا من أعمالك، إن احتجتِ إلى أيّ أمرٍ، أخبريني".

كنتُ في غرفة جديدة بأثاثٍ جديد ورائحة جديدة، برفقة شابٍّ لم أقابله إلا منذ عشر دقائق، فما الّذي يجب عليّ فعله؟ ما الّذي يجدر بي قوله؟

قلتُ: "لا أتذكّر أنّني اخترتُ هذا المكان".

قال: "لا بأس، إنّنا مسرورون لاستقبالكِ".

قلتُ: "لم أحظَ بما يكفي من النّوم، لساعات طويلة".

قال: "ستنامين جيّدًا هنا، إنّي على يقين من ذلك، فالجميع ينام هنا هانئًا، تريد شيلي أن تجعل المكان مريحًا قدر الإمكان".

كان صوته رقيقًا ورفيعًا، تمامًا كجسده.

قلتُ: "لم أنتهِ بعدُ من العمل على اللّوحات الّتي كنت تنظر إليها".

سمعنا صوت ضحكات عالية من مكانٍ ما، كانت صرخاتٍ صاخبة ومرتفعة، تبعها تصفيقٌ وهتاف.

قال: "يبدو أنّ النّزلاء جاهزون لمقابلتكِ".

جلس ثلاثة أشخاصٍ في مثل سنّي في شكلٍ نصف دائريّ، متباعدين.

أشارت لي شيلي حتّى أتقدّم إلى مقعدٍ شاغرٍ.

"بيني، لقد وصلتِ في الوقت المناسب، تفضّلي رجاءً، تفضّلي".

أتشبّث بذراع جاك الذي قادني إلى دائرة الجلوس، وأسرُّ لرفقته.

تلتفت إليَّ إحدى النّزيلات، امرأة بشعر قصيرٍ لا يصل إلى كتفيْها، اعتدتُ قصّ شعري بهذه الطّريقة في أوائل عمر العشرين، لم يلتفت الآخرون نحوي، وأشعرني ذلك بنوعٍ من الرّاحة، فلم أرغب أن أكون محطّ الانتباه أو الإطراء المبالغ فيه، أكره أن تُسلّط عليَّ الأضواء.

ترفع المرأة ذات الشعر القصير يدها إلى عينها، وهي تمثل بها حرف O، تنظر عبرها، وكأنّها تنظر عبر تلسكوب، ثمّ تلوّح لي باليد الأخرى.

ورغم قلقي بما سيلحق ذلك، وبما ستكون عليه حياتي في هذا المكان، وبما سيُتوقّع منّي فيه، فقد كان من المطمئن أن أرى نزلاء يشبهونني، في مثل عمري، عاشوا العصر الّذي عشته.

يقودني جاك إلى المقعد الوحيد الشّاغر في الدائرة، ويساعدني على الجلوس، قالت شيلي: "أشكرك".

فيومئ، ويمضي بعيدًا، خارج الغرفة.

أنظر إلى الوجوه المتقدّمة في السّن حولي، إلى جانب المرأة ذات الشّعر القصير، رجلان، أحدهما بدين وأصلع، والآخر أنيق في ثيابه، يرتدي ربطة عنق ومعطفًا من الصّوف الخشن، كان شعره الأشيب مسرَّحًا

بعناية، ورغم جلوسه فقد رأيتُ أنّه طويل القامة، وكذلك كان وجهه وقد ارتسمت عليه تجاعيد تشي ببعض الحزن.

"أريدكم جميعًا أن ترحّبوا ببيني".

فألوِّح للجميع، وليس لأحدٍ.

قالت المرأة ذات الشّعر القصير: "صباح الخير، سيّدتي، سررنا برؤيتك ولقائك، تبدين ودودةً للغاية، وجميلة جدًّا، كم عمركِ؟ ليس عليكِ أن تُجيبيني، أعرف أنَّ هذا ليس من اللّباقة، لا عليكِ مني، تجاهليني إن أردتِ، لقد غدوتِ واحدة منّا، وهذا أهمُّ ما في الأمر، واحدة منّا".

لم يتفوّه الرّجلان بكلمة، ربّما لأنّهما لم يرغبا في مجاراة حديث المرأة المتواصل، ولكنَّ ذا الشّعر الأشيب وربطة العنق أومأ لي مبتسمًا.

قالت شيلي: "روث هي خبيرتنا اللُّغوية، يمكنها التّحدّث بالفرنسية واللاتينيّة، وبعض اللّغات الأخرى كذلك".

أضافت روث: "وبعض اليونانيّة، ولكنّني أتحدّث الفرنسيّة ببراعة، تتطلّب كلّ لغة التّعلّم المتواصل، وكلّها لغات مُهمّة، هناك بعض اللّغات الّتي تموت حول العالم، أجد هذا مؤسفًا، ولكنّني أفضّل الفرنسيّة".

قالت شيلي: "تعلّم اللّغات يفيد الدّماغ، إلى جانب ميزة الحديث بلغة جديدة".

قالت روث تلمس صدغها: "يفيد تعلّم اللّغات الدّماغ، تمامًا كما يفيده تناول السّمك".

ثمّ تنظر إليَّ.

"بيني، بينيز، بينيز من الجنّة[4]، لقد كنّا في انتظارك".

قالت شيلي تقطع حديث روث، وتشير إلى الرّجل ذي ربطة العنق: "هذا هيلبرت"، ثمّ إلى الرّجل الأصلع: "وذاك بيت"، رأيتُ بعض اللّعاب يسيل من زاوية فمه، بدا وكأنّه أكبرنا جميعًا بسنين عدّة، لم يكن ينظر في عينيَّ، أمّا هيلبرت فابتسم من جديد وأومأ، ما منحني شعورًا بالرّاحة.

قالت روث: "نُحبّ أن نجلس معًا هذه الجلسة، في معظم الأيّام، يا بيني، نتحدّث ونطمئنّ على بعضنا، نحن نُحبّ تبادل الأحاديث".

قالت شيلي ترفع حاجبيْها: "بعضنا يُحبّ الأحاديث أكثر من البقيّة، كما أنّها فرصة لأن نظلّ على اتّصال، نتشارك الأخبار ونغنّي الأغاني ونضحك ونقصُّ القصص ونناقش أمورًا جديدة".

قالت روث: "يمكننا أن نقصَّ القصص التي نريد".

قالت شيلي: "هذا صحيحٌ يا روث، فقبل أن تصلي يا بيني، كان هيلبرت يحدّثنا عن."...

قال هيلبرت: "عن التّقريب بالكسور".

كان صوته هادئًا، عميقًا ومتّزنًا، أحببتُ وقعَه على أذني.

قالت روث: "وأحيانًا نفضّل أن نظلّ في غرفنا نائمين".

قالت شيلي: "يعزف لنا بيت أفضل الألحان بكمانه".

سأل هيلبرت: "ألا يُلقي أحدكم بالًا للكسور؟ إنّها تظهر كعددٍ واحد، ولكنّها تمثل جزءًا من الكلّ، أنا كسرٌ، وأنتِ كذلك يا بيني".

تضحك شيلي محافظةً على هدوئها في آنٍ، كانت جلستها متماسكة

---

(4) تشير إلى أغنية Pennies from heaven، والتي كانت تشبّه المطر حين يهطل من الغيم بالبنسات (جمع بنس، أصغر عملة بريطانية) الهابطة من الجنة. (المترجمة)

وثابتة، فلا هي تسوّي فستانها، ولا تعبث بأظافرها، قالت تنظر إليه: "لا نريد أن نبالغ في الحديث الرّياضي يا هيلبرت".

قالت روث: "أجد الكسور والأجزاء العشريّة رائعة، تمامًا كروعة تبادل الأحاديث واجتماعنا معًا هنا".

قالت شيلي: "هذا صحيح، فللحديث أثرٌ علاجيٌّ على النّفس، أخبرينا يا بيني، هل عشتِ طَوال حياتكِ في المدينة؟".

"أجل ،طَوال حياتي".

وفكّرتُ: حتى هذا اليوم، وهذه اللحظة.

"من المثير أن تكون هذه التّجرِبة جديدة عليكِ".

قالت روث: "أشبه بمغامرة!".

تملّكني القلق من عبارتها تلك، لا أريد أن أخوض مغامرة، على الإطلاق، بل أريد أن أكون في بيتي، أحظى بقيلولة، يعرف هؤلاء بعضهم بعضًا، ويعتادون على العيش هنا معًا، ولكنهم لا يعرفونني، ولا أعرفهم، إنَّهم غرباءُ عنّي.

أنظر خلفي إلى الباب فأرى القطّ يعبر المكان، لونه مماثل للون قطّتي غوركي، تلك التي حظيتُ بها منذ زمن طويل، كانت بلون حلوى الزّبدة الاسكتلنديّة، بشعرٍ طويل، وذيل كثيف.

قالت شيلي: "لا يتعلّق الأمر بالعيش بعيدًا عن الصّخب والضّجيج فحسب، وإنّما بحرصنا صادقين على أن نعتني بك ونرعاك، ستجدين ما لم تتعوّدي عليه من دلالٍ وسنخدمك بمحبّةٍ".

تأهّبت روث للحديث مجدّدًا، ولكنّها أحجمت عن ذلك، جاعلةً يدها على مستوى فمها، كالمتردّدة:

"وبما أنّ الغرف جميعها قد حُجزت، واستقبلنا أقصى عددٍ من

النّازلين، فإنّنا نخطّط لإقامة حفلة".

الغرف كلّها صارت محجوزةً، صرنا ستّة أنفارٍ باعتبار شيلي وجاك، وهذا أمرٌ غريبٌ، فلم أسمع قطّ عن دارٍ للعجزة تأوي هذا النّزر القليل من النّاسِ، ولا أدري حقًّا ما إذا كنت الرّقمَ الختاميّ المنتظر هذه السّنين كلّها.

تحدّثتُ دون تردّد: "أنحن السّتّة فقط ننزل هذه الدّارَ؟".

توجّهت الأعين جميعها إليَّ مجدّدًا، ربما لم يجدر بي قول أيّ شيء.

قال هيلبرت: "كلٌّ منّا يُعد سُدسًا، أي جزءًا من الكلّ: 0.1666666...".

قلتُ له: "إنّني عدد صحيح، واحدٌ".

قالت شيلي: "أحبُّ أن أبقي الدّار بهذا العدد، لطالما أردتُ لهذا المكان أن يظل صغيرًا وحميمًا، حيث نتعرّف جميعًا إلى بعضنا، فدور الرّعاية الكبيرة تُفتقد فيها المشاعر الحميمة بين النزلاء، وكأنها مَشافٍ، تفوح منها الروائح الكريهة، انتظرناك بشغفٍ يا بيني، وسيكون بوسعنا أن نحيا بصورة رائعةٍ وإنسانيَّةٍ، إنّنا نمثّل مجتمعًا متكاملًا، لكلّ فيه نصيبه من الرّعاية والحبّ".

سألها هيلبرت متشكّكًا" :إذًا، كنتِ تقولين... إقامة حفلة؟".

هتفت روث: "يبدو هذا ماتعًا! بالفرنسيّة نقول: .une fête!"

قالت شيلي :"أجل، نتطلّع إلى ذلك".

"رائع".

ينظر إليَّ هيلبرت ويميل نحوي قائلًا: "أتُحبّين الحفلات؟".

قلتُ: "أحببتها في السّابق، مرّ زمنٌ ليس باليسير عن آخر حفلةٍ حضرتها".

يظهر جاك عند الباب، مشيرًا برأسه إلى زاوية ما ،قائلًا: "العشاء جاهزٌ".

قالت شيلي: "جيّد جدًّا، هيّا جميعًا، حان وقت تناول الطّعام".

نخرج تباعًا عائدين إلى الرّدهة الضّيقة، ثم إلى غرفة الطّعام، الّتي لم تكن بحجم الغرفة المشتركة الّتي كنّا فيها، كانت الأمور تجري بنسقٍ متسارعٍ، وكنتُ لا أزال أحاول الاسترخاء في المقعد، والشّعور بالرّاحة قبل أن أعود إلى النّهوض والسّير مجدّدًا.

كانت نوافذ غرفة الطّعام مُطلّة على الأشجار كذلك، وعلى الغابة كلّها، ولم يكن بوسع المرء رؤية أيّ شيء سواها، في منتصف الغرفة طاولةٌ مربّعة الشّكل، يرشدني جاك إلى مقعدي فيما يستقلّ كلّ واحدٍ مقعدَه المعتادَ.

قالت روث: "ها قد احتللتِ المقعدَ الأخير يا بينيز، والآن اكتملت طاولتُنا".

لا أكلّف نفسي عناء التّصحيح، فاسمي هو بيني وليس بينيز.

يرفع هيلبرت ناظريْه، فأرى لمعة دافئة في عينه، وكأنه يلمح إلى نكتة يريد أن يخصّني بها.

وُضع أمامي طبقٌ من الطّعام الّذي تصاعد منه البُخار، وأرسيت بقيّة الأطباق أمام الجميع، في كلٍّ منها قدرٌ مطابق من اللّحم والبطاطا المشويّة والخضار، أدركتُ استحالة إنهاء طبقي، كان اللّحم مغطًّى بصلصة داكنة اللّون، لم أذق صلصة لحم حقيقيّة منذ سنين عديدة، فلم أتمالك نفسي، غمستُ خنصري في حافّة الشّريحة، وتذوّقتُ الطعم، كان ساخنًا ولذيذًا، بنكهة قويّة وغنيّة ومُرضية.

سألتني روث: "أتُحبّين السّمك؟" .

قال هيلبرت: "اللّيلة للحم البقر، ولكنّنا نتناول السّمك كثيرًا".

اندفعت روث: "وأحيانًا الدّجاج، وشرائح اللحم مع صلصة التّفاح، واللّحم المفروم، والذّرة بالقشدة، والسّلطة اليونانيّة، وفطيرة الرّاعي، والسباغيتي".

قال هيلبرت: "ولكنّ أطباق السّمك تفوقها جميعها."

قلتُ: "شهيّتي ضعيفة هذه الأيّام"، ولكنّني شعرتُ بمعدتي تعترض على ذلك، مترقّبة تناولي الطّعام.

يحمل بيت الشّوكة والسّكين، ويبدأ في تناول طعامه، بدا نصف نائم، هذا ما وجدته عليه منذ وصلتُ إلى هذا المكان، فجفناه منخفضان، وعيناه نصف مغمضتيْن، ولا أثر لابتسامة على وجهه، أو لأيّ علامةٍ على الإدراك، ورغم أنّ روث ترفع شوكتها فقد كانت تتحدّث، وتؤجّل الطّعام.

قالت: "يمكننا أن نحظى بالنّبيذ مع العشاء، إن أردنا ذلك، فالقاعدة الأهمّ ألّا يتعدّى شربنا كأسًا واحدةً في اليوم".

قال هيلبرت: "وللأسف فقد شربتُ نصيبي على الغداء".

لم يعد لديّ شكٌّ أنّ هيلبرت مولعٌ بالقوانين وبالضّوابط، شديد العناية بالنّظام، ودفعني الأمرُ إلى التّساؤل عن مهنته قبل أن ينولَ بالدّار، بل إنّني أتساءلُ عن سبب حلوله بهذا المقام.

قال جاك، وكان يجلس قبالتي: "من الأفضل أن تدعيها تتناول الطّعام، لا بدّ أنّها تُحبُّ تناوله أكثر من الحديث عنه".

تقتطع روث في خاتمة المطاف قطعةً من اللّحم، وتلقي بها في فمها، لأتمكّن أخيرًا من العودة إلى طعامي، كانَ لحمُ البقر طريًّا، وغايةً في اللّذّة، حتّى إنّني أجزمُ أنّني لم أتذوّق له مثيلًا في حياتي، ثمّ إنّني لا

أفضّل لحم البقر عادةً، فمضغه مهمّة شاقّةٌ، وطعمه لا يغريني، ولكنّني لا أتجاوزُ الحقيقةَ في شيءٍ إذا أكّدتُ أنّ ما أنا بصدده الآن يُعدّ استثناءً، حتّى إنّني من فرط لذّته أغمضت عينيَّ، إنّه طبقٌ مختلفٌ بالنّسبة إليّ بعدَ سنواتٍ من الحساء الأحمر والخبز المحمّص والجبنة، وكان فمي يفيض باللعاب وأنا أمضغ اللّقمات وأبتلعها.

كلّما فتحتُ عينيّ رمقتُ هيلبرت، فإذا هو يفعلُ الشّيءَ نفسَه. كان يستعملُ بعناية فائقةٍ الشّوكة والسّكّين، ويعيدُ السّكّين إلى الطّاولة بعدَ أن يرفعَ الشّوكةَ إلى فمه، ثمّ إنّه من بعد ذلك يربّت بالمنديل على زاوية فمه كلّما أصابتها صلصة اللحم، لفت انتباهي شديدُ حرصه على نظافته، فأظافره نظيفة ومُقلَّمة، وهو على قدرٍ مذهلٍ من النّظام، ومن الانضباطِ.

وجدتُ أنّني قد تخلّصت بعض الشّيء من الضّيق الّذي ألمّ بي منذ قليلٍ، ووجدتُ بعض البهجةِ تغمرني لمشاركتي جمعًا لطيفًا من المتقدّمين في السّنّ وجبةً دسمةً.

منذ زمنٍ لم أشارك أحدًا وجبة الطّعامِ، وحتّى ما حظيت به من حفلاتِ عشاءٍ كنّا ننظّمها في البيتِ، لم تكن تحملُ معنًى، وكان لديّ إزاءها شعورٌ بالغربة حيث التّصنّع والتّكلّف في كلّ شيءٍ، لقد كانت الوجبة لذيذةً وماتعةً، ولا شكّ أنّ فعلَ المشاركة يمنح وجودنا رونقًا، ويعزّز فينا بُعدنا الإنسانيَّ.

مثلُ هذه الأمور تمثّلُ لي الكثيرَ، ولعلّني الآن أكتشفُ تَوقي إليها، لقد كانت كامنةً في داخلي دون أن أكون مدركةً لحقيقتي.

سألني جاك: "أترغبين في كأسٍ من النّبيذ؟".

"لم أَعُد أشرب الكثير".

قالت روث: "أريد كأسًا من فضلك".

هزَّ جاك رأسه: "لا يا روث، لقد حظيتِ بكأسكِ على الغداء اليوم".

تضحك روث، ويظلّ هيلبرت صامتًا.

قلتُ: "في الواقع، ربّما أرغب في بعض النّبيذ، فلِمَ لا؟".

"أترغبين بالنّبيذ الأبيض؟".

"بالتأكيد."

يغادر جاك الغرفة لجلبه، قال هيلبرت متناولًا فتاتًا من على كُمِّه: "من الجميل أنّكِ بيننا، فقد مُلئت مقاعدنا المتقابلة، وها هي طاولتنا تشعر باكتمال الحلقة حولها، من الرّائع أن يتحقّق هذا التّناظر بتحلّق أربعة أفرادٍ على طاولةٍ واحدةٍ".

وأنا أجولُ ببصري، متمعّنةً الوجوه وتجاعيدها، أحسست بالتّماثل، فهم بلا شكٍّ يشكون ضعفَ قواهم، أياديهم وأسنانهم، لم تعد مثلما كانت في السّابق، ولكنّ ضعفهم لم يحرمهم من التّمتّع باللّحظةِ، ومن الامتلاء بها، كانوا يلقمون قطعَ اللّحم بكثيرٍ من الرّغبة والسّرور، وفي عيونهم فيضٌ من الرّضا والامتنان، لم تكن ساعة الوجبة روتينًا يوميًّا بل فرصةً للبهجةِ.

يعودُ جاك بكأس النّبيذ، ويضعه أمامي، قبلَ أن يعود إلى المطبخ، قبلَ أن تطأ شفتاي الكأسَ، أشمُّ رائحة النّبيذ، فأجده طيّبًا، أحتسي بعضه فإذا هو حاذق وجافّ وفاخر، أكتفي وأمرّر ما تبقّى من الكأس إلى هيلبرت، قلتُ له: "لقد مضى وقتٌ على الغداء".

يستقبل الكأس بإيماءة متواضعة، ويرتشف منه، فتجحظ عينا روث، ويُفغر فاهها في تعبيرٍ ساخرٍ عن الصّدمة، ومن ثمّ تضحك

مجدّدًا.

يتابع بيت تناول طعامه شاردًا في أمر ما، غير واعٍ بما يدور حوله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد أن نتحلّى بفطيرة الكرز الدّافئة، يساعدني جاك في العودة إلى غرفتي، يُطفئ المصباح في السّقف، ويبقي الغرفة على الإضاءة الصّفراء الخافتة للمصباح.

قلتُ له: "أشكرك".

قال: "على الرّحب يا بيني، أتحتاجين أمرًا آخر؟".

"لا، لا أعتقد ذلك".

"ليلة طيّبة، ونومًا هانئًا".

ينتابني وأنا أستعدّ للنّوم إحساسٌ لطالما فقدته. إنّني محلّ عنايةٍ، ورعايةٍ، هناك من يحرسني، ويغدق عليّ، ويهمّه أمري، في أبسط الأشياء وأوكدها: كأنْ أشعر بالشبع والدّفء، وبالانتماء إلى مجموعة بدأت الألفةُ تجمعني بأفرادها رغم حداثة العهد، وأروع ما في الأمر أنّني بدأت أشعر بالنّشاط يدبّ في داخلي، ويجعلني أكثر تعلّقًا بالحياةِ.

قبل أن أستلقي أراقبُ العتمةَ في الخارج من النّافذة، وأجد صعوبةً في أن أحدّد موقع غرفتي من المدخل الأماميّ للبناية، بل ومن بقيّة الغرف المشتركة، ومن غرفة الطّعام.

كانت حقيبة يدي معلقة على ظهر مقعدي، أتناول من جيبها الجانبيّ منحوتة خزفيّة أحضرتها معي من شقّتي، كانت أولى منحوتاتي، يميل الرأس فيها جانبًا، أضعها أعلى الخزانة، وأميل رأسي مثلها، فأطابق وضعها. أطفئ المصباح، وأخلع حذائي، وأستلقي على ظهري، أسحب اللّحاف الثقيل حتّى ذقني، كان ارتفاع الوسادة

مناسبًا، وقوامها ملائمًا لإراحة رأسي عليها.

عمَّ الهدوء المكان.

أحملق في السّقف، مثلما تعوّدت أن أفعلَ في شقّتي، وأفكّر في الأثناء أنّه لا محالةَ قد فاتحني في أمرِ الدّار، وأخذ برأيي، ولا بدّ أنّني لطول العهدِ قد نسيتُ، وعليه فلا يجدر بي أن أكون مستاءة، عليّ الامتنان، والاستمتاعُ بما أجده في الدّار من ودّ صادقٍ، ومن صحبةٍ طيّبةٍ، وطعام لذيذٍ، ثمّ إنّ سريري مريحٌ للغايةِ.

لقد نجوتُ بأعجوبةٍ من سقطتي تلكَ، ولكن عليّ أن أطويَ تلك الصّفحةَ، وأن أستمتعَ بقدرتي بعد ليالٍ من الأرق والتّقلّب، أن أنام بصورةٍ عميقة .

تسقط أشعة الشمس على الغرفة عبر النافذة، أشعر ببقعة رطبة على الوسادة، ملتصقة بوجنتي، لا بدّ أن هذا لعابي، كم السّاعة الآن؟ أفرك عينيَّ، ولا أذكر آخر ليلة نمتُها كاملة، دون الحاجة إلى الحمّام، ودون التقلّب، وتبديل وضعيّات النّوم، بل صحوتُ على الوضعية ذاتها التي نمتُ عليها.

أسمع طرقةً خفيفةً على الباب.

يدخل جاك الغرفة قائلًا: "صباح الخير يا بيني، هذا أنا".

كان يرتدي كما البارحة، قميصًا وبنطالًا أبيضيْن نظيفيْن، حملَ مناشفَ نضرة ومطوية بعناية.

"أحضرتُ هذه لكِ".

يتّجه إلى الحمّام، ويعود خالي الوفاض.

"إذًا، كيف كان نومكِ؟".

قلتُ وأنا أهبط بقدميَّ عن السرير، وأرفع يدي لأخلل أصابعي بين

خصلات شعري: "جيدًا، بل ممتازًا، حتّى إنّني لا أكاد أصدّق، لقد استيقظتُ توًّا."

قال: "عظيم! تبدين مرتاحةً".

أشعر بشعري دهنيًّا، وغير مرتّب، مثل عشّ الطّائر.

سألني: "متى كانت آخر مرة مشّطتِ فيها شعركِ؟".

قلتُ: "لا أدري".

لا بدّ أنّه بدا قبيحًا، أحتاج الاستحمام.

قال: "سأمشطه لكِ سريعًا."

أجفل عندما يلمسني، ورغم تردّدي فإنّني أذعن له، وأغمض عينيَّ، أتقبّل أن يمشط لي شعري شخصٌ آخر، وأستحبّ الأمرَ، صرتُ بمرور الوقتِ أشعرُ بالأمان في هذه الدّار، وأهنأ بطعامها، وأنعم بما أجده فيها من راحةٍ، ومن طعامٍ طيّبٍ، ومن نومٍ هنيءٍ.

قلتُ: "نمتُ اللّيلة بطولها، وهذا أمرٌ مُستجد، لم أحلم بشيء، بل حظيتُ بنومٍ عميقٍ ومريحٍ".

كانت لمسته ناعمةً، وطريقته في التّمشيط لطيفة.

قال: "آسَف لسقوطكِ، لا بدَّ أن ذلك كان مخيفًا."

وعندما ذكر لي ذلك، شعرتُ مجدّدًا بموضع الجرح في رأسي، قشرة الجرح تلك، لم أتذكرها إلا تلك اللّحظة.

قلتُ: "لا أفهم طبيعة التقدّم في العمر".

قال: "لا بدّ أن لذلك أثرًا كبيرًا عليكِ، أليس كذلك؟".

"هناك حتمًا مبرّرٌ مقنعٌ لرغبة النّاسِ في أن يظلّوا شبابًا، رغبةٌ محمومةٌ يسخّرون من أجلها كلّ نفيسٍ، وأنت محظوظ يا جاك، لأنّك في عنفوان شبيبتك، عليك أن تكون ممتنًّا للحياةِ، أنا في أفضل أحوالي هنا، رغم

الألم الّذي يتفاقم يومًا بعد آخر على مستوى ركبتيّ، ورغم ما يتهدّد ذاكرتي من نسيانٍ بات يزعجني".

قال: "آسف يا بيني".

"بدأت في كتابة الملاحظات لمساعدة نفسي على التّذكّر، ولكنّني أقع في الحَيرة أحيانًا".

"سيكون حالكِ أفضل هنا".

"أفضل؟ لا، وهذا مقصدي، إنّي أكبر من أن يتحسّن وضعي، إنّي أكبر من أنْ يحدث لي أيُّ شيء".

"هذا ليس صحيحًا، لقد نمتِ بصورة أفضل، أليس كذلك؟".

تركّز بصري على صورةٍ له، كانت على مقربةٍ من منحوتتي الخزفيّة، وتساءلت عن السّبب الّذي جعلني أجلبها معي، رغم أنّني كنت أنوي الإبقاء عليها في الشّقّةِ، هل حزمها مايك مع بقيّة الأغراض دون علمي؟ لا أتذكّر حقًّا حقيقة ما جرى.

انتبه جاك إلى ما أنظر إليه وسألني: "من هذا؟".

قلتُ: "إنّه هو".

"الرّجل الّذي عشتِ معه؟ كان فنّانًا، أليس كذلك؟".

"أجل، ولكنّه لم يؤمن بالزواج يومًا، عدَّ الفكرة تقليديّة للغاية ولا تناسبه، ثمّ إنّه لم يؤمن بأمور كثيرة، لقد بلغت سخريته مبلغًا لا حدودَ له، وغدا في أواخر حياته باحثًا عن الاعتراف بموهبته بأيّ ثمنٍ، ومثلُ هذا الأمر كان يزعجني".

قال: "العلاقات أمرٌ معقّد، تمامًا كالعائلات".

حسبت أنّ جايك في تلك اللّحظة سيحدّثني عن حياته الشّخصيّة من باب التّداعي، ولكنّه لم يفعلْ، وتابَع بصمتٍ تمشيط شعري.

قال بعدما انتهى، متّخذًا خطوة إلى الخلف، والمشط على جانبه: "هاكِ، ما زال شعرك ناعمًا وجميلًا، هيا، لنتناول الفطور، لا بدّ أنّك جائعة".

كنتُ جائعة بالفعل، بل أتضوّر جوعًا، حتّى إنّ معدتي أصدرت أصواتًا ونحن على الممرّ، ورغم أنّني قد تعوّدتُ لسنينٍ أن أتبضّع ما أحتاج من لوازم بمفردي، حتّى في تلك الأيّام الّتي تلازمني فيها آلام ركبتي، فإنّني بعد مضيّ يومٍ واحدٍ في هذه الدّار صرتُ شديدةَ الاعتماد على جاك في الأمورِ كلّها. يسعدني ما يحدث، ويبعث فيّ إحساسًا بالرّاحةِ لم أعرفه من قبلُ، في الممرّ ظللتُ أرقب حركةَ أقدامنا في توافقٍ وانسجامٍ، وبدا لي حذاؤه الرّياضيّ جديدًا كأنّه لم يسِرْ به خارجَ الدّار.

عندما نلتفت إلى اليسار، باتّجاه غرفة الطّعام، تُضاء الرّدهة من تلقاء نفسها، وأجد الجميع في الغرفة جاهزين.

يقع نظري أوّلًا على هيلبرت وهو مستغرقٌ في قراءة كتابٍ ما، يرفع عنه ناظريْه حال جلوسي، فيشرق وجهه، ويومئ لي ،ألاحظ أنّ البقيّة قد أنهَوْا إفطارهم، وجاؤوا على ما في الأطباقِ.

"أردتُ أن أدعكِ تنامين لوقتٍ أطول يا بيني، لهذا انتهى الجميع من فطورهم قبلك، آمل ألا يزعجكِ ذلك".

قلتُ: "بالتأكيد لا يزعجني".

غرق بيت في مقعده، وبدا مستغرقًا في قيلولة ما بعد الإفطار، هناك في مكانه على الطّاولة.

قالت روث: "إنّه يوم حافلٌ آخر، وليس لدينا متّسع من الوقت لنضيعه، لذلك تناولنا فطورنا قبلكِ، لم نستطع الانتظار أكثر، إنّه يوم جديد، فاستمتعي بفطوركِ يا بينيز".

أرى صفار بيضٍ منسكبًا على قميصها، تقف وتنحني قبل الخروج من الغرفة.

قال هيلبرت يقلّب كتابه، ويرفع نظّاراته إلى رأسه: "يمكنني أن أظلّ هنا، برفقتكِ، بينما تتناولين الطّعام، هل تُحبّين ذلك؟".

قلتُ وقد أدركتُ أنّه ظل في مكانه منتظرًا وصولي: "أجل، أحبُّ ذلك".

لم يكن يعدُّ بقاءه مع بيت، بحالته تلك، رفقةً، فتوجب عليَّ قَبول عرضه، تساءلتُ عن عمر بيت، لا بدّ أنّه متقدم كثيرًا في السّن، ربّما تعدّى المئة عام؟ من الصّعب معرفة ما يدور في رأسه، خلف ذلك الوجه الغافل والعينيْن المرهقتيْن.

قال هيلبرت فجأة: "أحبُّ شكل وجنتكِ، لم أرَ وجنة تشبهها من قبل".

وبصورة غريزيّة، أرفع يدي إلى وجهي.

لم يسبقْ أن امتدح أحدهم وجنتي، بدا لي الأمرُ مختلفًا وصادقًا، فلطالما أثنى الآخرون على ابتسامتي، وعلى شعري، أو عينيّ، دون أن ينتبهوا إلى وجنتي، شعرت بالوجلِ، وضاعت عنّي الكلماتُ.

قلتُ: "أحببتُ القراءة من قبل، خاصّة الرّوايات، اعتاد والدي إهدائي كتبًا عن علم الأحياء، كما امتلكتُ مجموعة من كتب الطّهي والفنّ".

قال: "لدينا هنا متّسعٌ من الوقتِ لقراءةِ ما نريد".

"لا أدري، لا تكمن مشكلتي في قِصر الوقت، بل يبدو أنّ الرغبة في القراءة قد تخلّت عني؛ إذ يصعب عليّ التّركيز على ما أقرأ، لم أعتقد يومًا أنّني سأفقد القدرة على أداء أمر بسيط، كقراءة قصّة، أو التركيز

على الكلمات في الصّفحة، هل لي أن أعرفَ ماذا تقرأ؟".

تحسّس كتابه للحظة، كانت يداه متجعّدتَينِ، مثل يديَّ، ولكنّ أصابعه رشيقة، ونحيفة كأصابع عازف البيانو.

"همم، لنرَ ...عُنوانه."...

ورفعه لأقرأ العُنوان، فتوجّب عليَّ الاقتراب أكثر.

الهندسة اللاتبادلية ونظريّة الأعداد: حيث يتقاطع الحساب مع الهندسة والفيزياء.

قلتُ: "لا أعتقد أنني أعرف هذا الكتاب".

ضحك كلانا بخفّة، يرفع بيت ناظريه لمدّةٍ وجيزة، ولا يُظهر أيَّ دلالة على الإدراك.

"أحد المؤلّفَين رياضيّة إيطاليّة مذهلة، تُدعى ماتيلدا ماركولي".

قلتُ: "أظن أنّني أعرف شخصيّات إيطاليّة فنّية، لطالما ذكرتني أسماء الفنّانين بأشياء عديدة".

"ولم تعُدْ تذكّرك بشيء اليوم؟".

"من الصّعب عليَّ أن أُعنى بهذا الأمر بالطّريقة ذاتها، من المستحيل أن يظلّ حماسك للأشياء مشتعلًا للأبد".

قال: "الأبد زمان طويل، قرأتُ مؤخرًا عن اللانهاية، لذلك أفهم طبيعة المصطلح، ولكن كم يطولُ الأبد؟".

"فكرة اللانهاية تصيبني بالقلق والانزعاج، لطالما أصابتني بذلك، إنّي أقلق عادة، وكلّ ما يتعلق بالأبد يخيفني".

قال: "إلا إنْ تعلّق الأمر بحياتنا الأبديّة".

قلتُ: "أجل، شرط أن نوكل لشيلي مهمّة التّرتيب لذلك".

قال بضحكة قصيرة: "بالضّبط، أن نعيش أبدًا على الخبز المحمّص

والبيض".

"لو أمكن لنا أن نظلّ شبابًا، لما كان علينا القلق إزاء أيّ أمر، إنّ التقدّم في العمر مثير للرّعب".

قال: "أنا رياضيٌّ، ولا أقلق كثيرًا، فهناك قوانينُ وحدود وآفاق لكلّ شيء، حتى لو لم نصل إليها بأنفسنا".

قلتُ: "لم أبرع يومًا في الرياضيّات".

يشير هيلبرت إلى بقعة لونٍ على كُمي لم أنتبه إليها من قبل، أغطيها بيدي، فيقول:

"أنتِ رسّامة".

"لم أعد كذلك، اعتدتُ ممارسة الرّسم من قبل، ولكنّني لم أبع أيَّ لوحة في حياتي، ولم أنشئ معرِضًا."

ينظر إليَّ ممعنًا.

"هذا ليس مهمًّا، إنك ترسمين، أي تخلقين من العدم، وتفكرين بحُرّية، إنّكِ فنّانة".

متى كانت آخر مرة أمسكتُ فيها الفرشاة؟

"لم أحبَّ يومًا أن أُدعى بالفنانة، ولم يؤثر ذلك على عملي، إنّه مجرّد لقب".

قال: "آمل ألّا تمانعي أن أدعوكِ بالفنّانة، فلم أكن يومًا لأمارس الفنّ، أعتقد أنّه رائع وممتلئ بالغموض".

قلتُ: "ولم أكن يومًا لأتخصّص في الرّياضيات كذلك".

ابتسمت عيناه قائلًا: "عليَّ أن أعترف، فرغم تقديري للفنّ، لا أعتقد أنّني أفهم مقصد صاحبه".

"لا يكون المقصد واحدًا، فالفنّ الذي مارسته يكمن أثره في

الطّبقات، أشبه بالتّحوّل".

"التّحول؟".

"أي أن أحوِّل ما أختبره، وأشعر به إلى شيء يمكنني إنتاجه والعمل عليه، وربما لهذا يشعر المشاهدون بالمشاعر ذاتها، أو لا يشعرون، لا أعرف كيف يمكن أن أشرح الأمر بعبارات أخرى".

"بما أنّكِ تتحدّثين عن التّحول، فالرّياضيّات المجرّدة، والجبر، ونظريّة الأعداد أشبه بنظام من التّحوّل كذلك، فالحساب ينتهي بالحلِّ".

قلتُ: "ولكنّني لا أفهمه، لا أجد ميلًا في دماغي إليه".

قال: "إذًا عليكِ أن تثقي بما أقول".

كنتُ أثق به بالفعل، ثقة لم تراودني منذ زمن طويل، فوريّة وغير عقلانيّة وتلقائيّة.

يضع جاك الطّعام أمامي، فإذا هو على هيئةِ وجهٍ مبتسمٍ. البيضتان المقليّتان مثل عينيْن، وشريحة البرتقال بمثابة الأنف، والخبز المحمّص مثل أذنيْن، وأمّا لحم الخنزير ففم مبتسمٌ.

قال جاك: "إلى جانب هذا، سأحضر لك الشّاي".

قلتُ: "أشكرك".

يعود جاك إلى المطبخ.

قلتُ لهيلبرت: "كانت لي صديقةٌ، أسرّت لي يومًا، أنّها ترى حديقتَها لوحةً ثلاثيّة الأبعادِ، ورغم أنّني تفهّمتُ لِمَ قد يروق لها ذلك، فإنّني لم أكترث بتصوير الأبعاد الثلاثة في رسمي، فأنا أعيش فيها، ولهذا أحببتُ الرّسم، أردتُ تجرِبة أن أكونَ في عالمٍ ثنائيِّ الأبعاد".

سألني: "أتذكرين السّبب الذي جعلكِ تبدئين هذا كلّه؟".

"تقصد الرّسم؟".

"أجل".

"لأجل الألوان، بدأت الرّسم لأنّني أحببتُ الألوان، بهذه البساطة، كما أحبُّ التّغير الّذي يصيب اللّوحات".

"لوحاتكِ تتغيّر؟".

قلتُ: "بالنّسبة إلي، جميعها تتغيّر، وهذا ما قصدته بالتّحوّل، ففي البداية أملك فكرة اللّوحة، فكرة تخصّني، مشاعرُ أحاول إيصالها للآخر، ولكن في لحظة ما، يبدو الأمر وكأنني أتخلّى عن ملكيّتها، أو أفقدها، فتغدو قائمة بذاتها، وعندها تظلّ نظرتي إليها تتغيّر وتتبدّل".

"أتقصدين أنّ العمل يتغيّر بتغيّركِ؟".

"أجل، يتغيّر بتغيّري، وهذه حقيقة، إنّي مختلفة، وكذلك لوحاتي التي تتغيّر في كلّ مرّة أراها، ما يخلق الارتباك المستمرّ بمرور الوقت، المسألة برمّتها عاطفيّة، فمنظوري يختلف باستمرار، وهذا ما تدور حوله اللّوحة عادة، أي المنظور والطّرق المختلفة لرؤية العمل، آمل ألا يبدو حديثي مغرقًا في البلاغة".

"لا يبدو كذلك، على الإطلاق".

"تبدو لي اللوحات التي رسمتها في زمنٍ سابقٍ مختلفة في ناظري، وشعوري إزاءها ساعة رسمتها لا يشبه في شيءٍ ما أشعر به اليوم تجاهها، إنّني لم أفكّر في مسائل من هذا القبيل منذ زمنٍ، بل إنّني لم أرسم شيئًا منذ...".

توقفتُ عن الحديث.

"منذ متى؟".

قلتُ: "لستُ أكيدة، لا أذكر آخر مرّة بدأت فيها عملًا جديدًا، لقد

صار من الصعب عليّ البدء بالأعمال، أشكّ في أنّني سأرسم أيّ شيء فيما بعد".

"هل يطيب لكِ ذلك؟".

مجرّد التّفكير في أن أنقطع كلّيًا عن الرّسم بدا لي مرعبًا، بدت لي الفكرة مأساويّةً وقاسيةً، ولم أكن لأقبل ذلك.

"لا أعلم، ربما لا يطيب لي، تنتابني مشاعرُ مختلفة منذ نزلتُ في هذا المكان".

يبتسم لعبارتي.

"ما يزال لديّ الكثير لأنجزه".

قلتُ آملة ألّا أبدو متفاجئة للغاية من إعلانه: "بالتّأكيد."

"أجل، أشعر بأنّ العمل متأصّلٌ فيَّ عميقًا، وازداد هذا الشعور قوة منذ نزلتُ هذا المكان، إنه جزء من هُويّتي، كما أنها تريدنا أن نظل مُنتجين، بل تُحب أن نظلّ كذلك".

لم أدرك أنّني كنتُ أتناول الطّعام في أثناء الحديث، فقد وجدتُ صحني فارغًا، سوى من قشرتين من البرتقال".

قال: "أودّ مشاهدتكِ يومًا ترسمين، آمل ألّا يكون طلبي ثقيلًا."

أسعل عند عبارته، وأنظر بعيدًا، بينما يدخل جاك ليحمل صحني.

"أترغبين بالمزيد من الشّاي؟".

قلتُ: "لا، أشكرك".

يضع السّكين والشّوكة على الطّبق، ويحمله عائدًا إلى المطبخ، لأظلّ رفقة هيلبرت في هدوء، مجدّدًا.

قلتُ: "لطالما أرهبتني فكرة أن تتقدّم بي السّنّ، وأن أفقد الشّغف والرّغبة في العطاء، ولعلّ أكثر ما يخيفني من الأمر أن يفوتني كلّ أوانٍ،

وأن يستبدّ بي النّسيانُ".

لا يتفوّه بيت بحرف، حتّى إنّني أنسى جلوسه معنا، ولكنّني أراه ينظر باتّجاه المطبخ، وكأنّه يتوقّع حصوله على طبقٍ آخر من الطّعام.

سألتُ هيلبرت: "هل يخيفك اقترابك من النّهاية؟".

قال هيلبرت: "ولِمَ قد يكون أيّ شيء من هذا مخيفًا؟ يمكن أن يكون مخيفًا بالفعل عندما يكون مُحتّمًا علينا".

قلتُ: "أي كما هو محتم علينا الوصول إلى النّهاية".

قال: "حقًّا؟ ما يزال بيت هنا، ونحن كذلك، وشيلي تذكرني دائمًا بأن السرَّ في الحياة الطويلة كامن في أن يظلّ المرء إيجابيًّا ومُنتجًا ،إيجابيًّا ومُنتجًا ،إيجابيًّا ومُنتجًا."

سألته: "وكم مضى على نزولك في هذا المكان؟".

راح ينظر إلى بيت الذي ظلّ محدّقًا باتّجاه المطبخ، سأله: "بيت، أتريد شيئًا من هناك؟".

سألتُه: "أتريدني أن أنادي جاك؟".

ينظر إليَّ بعينيه المثقلتيْن، ولا يجيب، أتساءل عن موطنه وعمّا يفكر به.

قال هيلبرت: "إنّه قليل الكلام فحسب، ولا خطب في ذلك".

قلتُ: "عندما كنتُ في شقّتي، كنت أمضي أسابيعَ عديدة من دون التّحدث إلى أحد، حتّى عندما كنت أخرج إلى الحديقة العامة، وأجلس على مقعدٍ هناك، حيث يمرّ العديد من النّاس، أو عندما أنتظر في طابور المتجر".

قال: "لا يتحدّث أحدٌ إلى كبار السّنّ".

قلتُ: "وكأنّنا لا نُرى".

مضت أيّام عزلتي يومًا تلو الآخر، رأيتُ فأرًا مرّة في شقّتي، توقّف في منتصف طريقه في غرفة المعيشة، وحدّق بي، نظرتُ إلى ذلك المخلوق الصّغير، لم يكن هناك سوانا في تلك الغرفة في الوقت ذاته، لم تصدر منّي ردّة فعل، ولم أكترث به على الإطلاق، وفكّرت لو أنّ الفأر ظلّ في شقّتي، وكبُر فيها، وتزاوج، وظلّ يتجوّل كما يحلو له، متناولًا فتات طعامي، متغوّطًا في الخزائن، أو قُدّر له في المقابل أن يقضيَ في تلك الليلة، وبدأ يتعفن في حفرة ما في الجدار، فسيّان عندي، ولم أكن لأكترث في كلتا الحالتيْن، لم يكن الأمر ذا أهمية لي، فلو كان حيًّا أم ميتًا في ذلك الجدار لَما أثّر ذلك عليَّ.

سألني هيلبرت: "هل أنتِ بخير؟".

"أعتذر، كنتُ أفكّر فحسب".

"بِمَ؟".

قلتُ: "بأنّ الأمور مختلفة هنا، كالطّعام والرّفقة، أحبُّ هذا التّغيّر، إنّه جميل".

يساعد جاك بيت على النّهوض، ويسألني إن كان باستطاعتي العودة إلى غرفتي وحدي.

أخبره: "بالتّأكيد."

صرتُ قادرةً على تبيّن الطّريق بين غرفتي وغرفة الطّعام من جهةٍ، ثمّ إنّ الحديث مع هيلبرت قد جعلني أكثر حيويّةً أشدّ نشاطًا وتحفّزًا، يا لذلك الصّباح! إنّه عامرٌ بالأحداث، وما زال اليوم في بدايته، أشعر بقدرٍ كبيرٍ من الارتياح ومن الرّغبة في العطاء، وبالتّجدّد، لقد تغيّرت الكثير من الأمور عليَّ في مدّةٍ قصيرة للغاية، بتُّ أشعر بالرّابطة تتكوّن

بيني وبين من يعيشون هنا، لقد صرتُ جزءًا من المجموعة، بل من المجتمع هنا.

أسير إلى غرفتي لأرى الضّوء يعبر النافذة، ويُلقى على سريري، أخطو خطوة أخرى قبل أن أتوقّف، رأيتُ على مكتبي مجموعة جديدة من الألوان، وعلبة من الفراشي.

أتقدم أكثر، كانت تلك ألواني المفضّلة جميعها: اللازورد، والأزرق، والعنبريُّ المحروق، والأليزارين القرمزيّ، وأحمر الكادميوم، ضاق صدري عندما وقفتُ أنظر إليها.

انبثق شيء ما بداخلي، تيارٌ متدفق من الإمكانات أمامي، نسيتُ أمره منذ زمان بعيد.

كيف وصلت هذه الألوان إلى هنا؟

مددتُ يدي، ومرّرتُ أصابعي بخفة على العلبة، ثمّ على الفراشي التي احتوتها، لقد قضيتُ عمري في الرّسم، ولمعظم الوقت كان ذلك يغمرني، ويجعلني في دفقٍ من الإمكانيات العديدة، كان ذلك أشبه بالإثارة التي ظللتُ أطاردها، شعورٌ لم أختبره في أيِّ نشاطٍ آخر، ذلك التَّوق والتلهف، أحببتُ دائمًا أن أبدأ لوحة جديدة، وعند كلّ واحدة، كنتُ أعيش هذا الشّعور مطوّلًا قبل أن أُخرج الألوان وأبدأ، لم أخبر أحدًا عن ذلك، في البداية، كنتُ أقضي ساعات عديدة أجلس في الحديقة العامّة، أخطُّ كلّ ما يمكنني رؤيته ،وأحيانًا، تطول هذه المرحلة لأسابيع، لم يفهم ما يجول في خاطري، فكان يسألني لِم أقضي وقتي في الحديقة بدلًا من الرّسم.

كان يقول: "مهما حاولتِ إقناع نفسك بهذا؛ فالخطاطة في الحديقة ليست كرسم اللّوحات".

ولكن بالنّسبة إليّ، كانت كذلك بالفعل، بل كانت خطوة مُهمّة لم أتمكن من تجاوزها أو تسريعها، بل استمتعتُ بمراحل رسم اللّوحة كلها بالقدر ذاته.

ولا يشمل ذلك الانتهاء منها، فلم أنتهِ من أيِّ لوحة بعدُ، كرهتُ محاولة الانتهاء من العمل، بدا لي الأمر إعلانًا صارمًا بالنّهاية، اعتدتُ على التّفكير في أنّ أيًّا من اللّوحات لا يجب أن تنتهي على الإطلاق.

أخبرني: "بالتأكيد يجب أن تنتهي، لا يمكنكِ البدء بعملٍ جديد من دون الانتهاء من آخر، عليكِ أن تتعلّمي اتّخاذ القرارات، وأن تكوني قاسيةً مع نفسك".

ولكن، لِمَ لا تكون طبيعة العمل في تقدّمٍ مستمرّ؟ لِمَ لا ندعه غير منتهٍ إلى الأبد؟ أي أن ندع عمليّة التحوّل مستمرّة، لم تكن غايتي يومًا تأطير لوحة منتهية، وتعليقها على الجدار.

أسمع خطوات في الرّدهة، وأجد شيلي عند باب غرفتي، تقطع عليَّ شرودي، لم أرَها منذ البارحة، وهناك الكثير ممّا سأخبرها به، كقدر الطّعام الذي تناولته، وحديثي مع هيلبرت.

"بيني؟ أعتذر عن التّطفّل، ولكنّ اجتماعنا يبدأ الآن".

كم مضى على وقوفي هناك؟ أرى أنّ الضّوء العابر للنّافذة قد انتقل من سريري إلى خزانتي، كيف حدث ذلك؟ هل حلَّ الظّهر بهذه السّرعة؟ هذا غير مُمكن.

ترى شيلي الحيرة التي تعتريني، وتقترب أكثر.

تقول: "لا بأس يا بيني، هيّا، استندي إلى ذراعي".

وعندما أفعل، أرى أنّها ترتدي قفّازات بلاستيكيّة رقيقة ونظيفة.

وجدتُ جمعَهم في انتظاري، روث تصفّر، وأمّا بيت وهيلبرت فقد جلسا بهدوء، فيما كان جاك يقف قبالةَ الجدار يتفحّص الهاتف في يده، وعلى عكس البارحة فقد بدا لي اجتماعهم أمرًا مألوفًا.

تقول شيلي بمجرد أن تجلس على مقعدها: "آمل أن يكون الجميع متحمّسًا للحفلة".

تقول روث: "نُحبّ الحفلات، فهي ماتعة دائمًا، بصرف النّظر عن مناسبتها، أكانت حفلات كبيرة أم صغيرة، نُحبّ أن نبدأها دائمًا، وألّا نغادرها حتى انتهائها، من دون أن نفوّت جزءًا منها، وبلا أعذارٍ تمنعنا عنها"، ثمّ تتابع مشيرة إلى بيت: "ربّما نقنعه أن يعزف لنا".

صعُب عليّ التقاط كلّ ما تقوله روث، فهي تتحدّث سريعًا، وبحماس شديد، وأحيانًا تُدخل في عباراتها الكلمات الفرنسيّة الغريبة علينا، تقول شيلي: "أعتقد أنها فكرة عظيمة يا روث"، فتضحك روث بخفة، تتابع شيلي: "أعلم أنّ بيت يتمرّن منذ زمنٍ على العزف، لقد كرَّس نفسَه لهذا بصورةٍ مذهلةٍ."

لا يُعلّق بيت، ذلك المسكين، سمعتُ عن فقدان أمثاله قدرتهم على الحديث، وتساءلتُ عمّا قد يخبرني به لو كان باستطاعته الحديث، وعن طبيعة صوته وصوت ضحكته.

كلما أستمع إلى حديث شيلي، ألحظ النّبرة الرّسميّة الجادّة في حديثها الّذي تتوجّه به إلينا، فكلّ ما تقوله يبدو وكأنّه نصٌّ تدرّبت عليه مسبقًا، وعبارات اعتادت تكرارَها.

وجدتُ نفسي أقول من دون تفكير: "اعتدتُ الرّقص".

يلتفت الجميع إليَّ، عدا بيت.

"كان ذلك منذ سنين عديدة مضت، لم أرقص مُذْ ذاك الحين، لا أعلم حتّى إن أمكنني الرّقص اليوم، في هذا العمر، ولكنّني أملك الكثير من الذكريات الأثيرة عن الرّقص".

قالت روث: "الرّقص ماتعٌ، ونحن نُحبّه، يتطلّب رقص التانغو شخصين".

"أتمنى فقط... لو كان بإمكاني الرّقص اليوم".

تحسّستُ ركبتي ناظرة إلى هيلبرت، الذي وجدته ينظر إليَّ بدوره، مبتسمًا بعينيْه اللامعتيْن.

قالت شيلي: "بالتّأكيد يمكنكِ".

قالت روث: "بل يمكننا جميعًا."

قلتُ: "أذكر رقصتي الأولى في الثانوية العامّة، والتّوتر الّذي انتابني حينها، وفي العشرينَ من عمري، اعتدتُ الرّقص مع صديقٍ بعينه، وكنّا نرقص لساعات طويلة، اعتدتُ الرّقص مع الكثير من الرّجال آنذاك، رجالٍ مختلفين كنتُ دائمًا أعثر عليهم، كنتُ أشعر بالثّقة على ساحة الرّقص، وكانت هناك قاعات رقصٍ يمكن أن يزورها المرء".

كنتُ أسمع الموسيقا في رأسي بوضوحٍ، قلتُ: "أحببتُ الرّقص على ألحان دوك إلينغتون، وأنيت هانشاو، كنتُ في ريعان شبابي".

وقبل أن أعِيَ ما أفعل، وجدتُ نفسي أدندن لحن هانشاو "أحبَّني اللّيلة"، انتهيتُ من المقاطع الأولى قبل أن أتوقّف فورًا، مُحرجة من استماع الجميع إليَّ ومشاهدتي، ما الّذي جعلني أتحدّث عن أمرٍ خاصّ كهذا بأريحيّة؟

قالت روث: "إنّكِ جميلة جدًّا، وهذه حقيقة"[5].

قالت شيلي: "لا يزال الدّور على بيني يا روث لأن تسرد علينا قصّة".

قلتُ: "لا، لا، لا بأس، أفضّل الاستماع إلى روث تتحدّث الفرنسيّة، تعلمتُ بعضًا منها في شبابي، كنتُ أعدُّ ذلك رومنسيًّا للغاية، وليتني تابعتُ تعلّمها".

قالت شيلي: "كنتُ آمل أن تجدي أمورًا مشتركة مع الآخرين، ومعي كذلك، فالطّريقة التي تقدِّرين بها الفنّ يا بيني هي الطّريقة الّتي أقدِّر بها الجسد البشريّ، فحتّى في صغري، كنتُ مهووسة بتعلّم كلّ شيء يمكنني تعلّمه حول التّشريح والعلوم الخاصّة بالكائنات الحيّة".

سألني هيلبرت على حين غرّة: "وأنتِ يا بيني؟ ما الّذي أردته في صغرك؟".

بدت شيلي متفاجئة لقطع هيلبرت حديثها، سألته: "ما الّذي تقصده؟".

"أي ما الّذي أردته من الحياة؟".

قلتُ: "هذا سؤال عظيم".

قال: "أكثر شيء وددته من الحياة".

قلتُ: "حسنٌ، أعتقد أنّني أردتُ الخروج من عالمي الصّغير، وأن أرى الفنّ، وأقرأ، وأقابل الكثيرين، أردتُ أن أكبر لأتعلّم الرّسم".

صمت هيلبرت للحظة، وفي النّهاية قال: "عندما كنتُ شابًّا، أردتُ أن أفهم نظريّة المجموعة والأحجام الممكنة للمجموعات اللانهائيّة،

(5)قالتها بالفرنسية. (المترجمة)

لقد مثل لي ذلك سرًّا مثيرًا".

أضحكتني إجابته، قالت روث تدور بعينيها: "هذا سخيف".

قلتُ: "لا، ليس سخيفًا، على الإطلاق، إنّي أحاول باستمرار أن أفهم طريقة يمكنني بها إنهاء عملي، هذا تصوّري مثلًا عن اللانهاية".

ورغم أنّني لم أعرف هذا الرّجل لمدَّةٍ طويلة، فقد أمكنني تصوّره في شبابه، طالبًا في الجامعة، بسيطًا وذكيًّا، نحيف الجسد، ومشغول الذّهن، ووسيمًا، وعبقريًّا كذلك.

قلتُ: "يروقني اختلاف تصوّرك عن المجموعات اللانهائيّة".

قال: "لقد تعلّمتُ الكثير منكِ في هذه المدَّة الوجيزة".

قلتُ: "أشكّ في ذلك".

يميل هيلبرت نحوي، ويضع يده بلطفٍ على يدي، كانت المرّة الأولى التي يلمسني فيها، يده دافئة وثقيلة ومريحة، تلاحظ شيلي ذلك، فتقول: "أعتقد أنّ الوقت قد حان لـ"...

ولكنّني أقاطعها: "أتذكّر أمرًا آخر".

قالت: "عفوًا؟".

"أقصد أمرًا آخرَ أردته في صغري، وأنا غِرَّةٌ بعدُ، قبلَ أن تتعلّق النّفسُ بعالم الخطوط والألوان، وقبلَ أن ينتشي جسدي بالرّقصِ والحركاتِ، كنتُ خجولةً، متهيّبةً من الآخرينَ، ومن الواقع الخارجيّ، ولكنّني أتذكّر شدّة تعلّقي بأمرٍ رغبةً حقيقيّةً، وقد كتمت رغبتي تلك عن والديّ، وعن أقرب المحيطين بي".

سألني هيلبرت: "وما هو؟".

"أردتُ أن أحلّق، أن أطفو".

سألتني روث: "أن تطيري؟".

قال هيلبرت موضّحًا: "لا، بل أن تطفوَ، قالت إنّها أرادت أن تطفوَ".

قالت شيلي: "ليست بالأمنية المتوقّعة".

قلتُ: "أردت أن أختبر ذلك الشّعور".

تنظر شيلي إليّ، ومن ثَمَّ إلى الآخرين، بينما ما يزال جاك مستندًا إلى الحائط، وقد تخلّى عن هاتفه، ولم أكن أشكّ في أنّه يتابع حديثنا باهتمام، وإن بدت عليه اللّامبالاة.

قلتُ مُدنِيةً بصري: "أردتُ أن أطفوَ فحسب، للحظة، أن أشعر بأقدامي تُفلت من الأرض، لطالما شعرتُ بوزني، ومن المستحيل أن تعرف طبيعة الشّعور حتّى تختبره".

قوبل سرُّ طفولتي بالصّمت، عدا عن تعليق هيلبرت: "إنّه القلق المفهوم الذي نحمله تجاه المادّة، والكتلة، والحياة، أشبه بشعور مكثف، أي العبء الّذي نحمله لأن نظلّ منتصبين، وأن نظل منتجين، ومثابرين، لقد شعرتُ بهذا أيضًا."

أحسُّ بشَعر ذراعيَّ ينتصب.

قالت شيلي: "لا بأس بالمثابرة يا هيلبرت، فهذه هي الحياة، تعكس المثابرة الرّوح القويّة".

قال هيلبرت: "ليس هذا ما نتحدث عنه"، ثمّ عاد إليَّ: "جادل بعضهم بأنّ المقدار الكُلي من الطاقة، أي طاقة الكون مجتمعة هو... أتريدين أن تخزري؟ هو صفر".

قالت شيلي: "هذا غير مُمكن".

قلتُ: "هشش" قبل أن أعيد تركيزي على هيلبرت، الّذي تابع: "تمثل المادّة الطّاقة الموجبة، بينما تمثل الجاذبيّة الطّاقة السّالبة، وعند

اجتماع الطّاقتيْن تُلغيان بعضهما".

تهزأ شيلي بخفوت، قلتُ: "فهمتُ، يتعلّق الأمر بالاختلاف إذًا، أي أن يكون المرء مختلفًا بالكامل، أي الجانب الآخر من شيء ما، تروقني فكرة وجود الضدِّ دائمًا."

أنظر إلى هيلبرت فقط، ولا أرى غيره، وأبتسم.

قالت شيلي: "أليست الأرض المشتركة أهمَّ ما في الأمر؟ أي الاتّحاد معًا، والاجتماع لتحقيق المصلحة المشتركة؟".

قال هيلبرت متجاهلًا شيلي: "يروقني التّناقض كذلك يا بيني، أحبّ أن أعرف بوجود جانبٍ آخر، أرى الأمر جميلًا، يشبه الأمر الطّوَفان، أي التّوازن وتحقيق التّناسب".

قالت شيلي تنهض من مكانها: "على أيِّ حال، دعونا لا نخُضْ في الفلسفة كثيرًا، أنتم لا تكفّون عن إدهاشي، جميعكم!".

كانت نبرتها حادّةً، وبلا روحٍ، بنزعةٍ توجيهيّة مباشرةٍ، رغمَ التّلطّف المصطنع، كما لو أنّنا أثرنا انزعاجَها، تابعتْ: "ولكن عليكم كذلك أن تحظوا بالرّاحة، جاك، هلّا ساعدت بيني في العودة إلى غرفتها؟".

سألها متفاجئًا: "الآن؟".

"أجل، الآن".

يتقدّم منّي جاك ويمدُّ لي ذراعه. عمَّ الغرفةَ صمتٌ في الوقت الّذي تاقت فيه نفسي إلى متابعة الحديث مع هيلبرت، وسؤاله عن حياته، وعمله في الرّياضيات، وعن أفكاره واهتماماته الأخرى. إنّ عوالمَه مغرية باكتشافها، وبالاستزادة منها، والتّعمّق فيها، ولكنني مع ذلك أمسك بذراع جاك، وأنهض من مكاني، ثمّ أقول لهيلبرت وأنا أهمّ

بالمغادرة: "ألسنا محظوظين لوجودنا هنا؟".

قال: "أجل، نحن كذلك حقًّا يا بيني، اليوم فقط شعرتُ بذلك".

سألته شيلي: "عفوًا، يا هيلبرت؟ ما الّذي قصدته؟".

لمستُ في سؤالها قدرًا أوضحَ من الحدّةِ، آلمتني في العمق، ومن عند الباب سمعتُ إجابتَه: "لم أقصد شيئًا، إنّي مسرور لأنّ بيني بيننا فقط."

تخلّيت عن ذراع جاك ونحن نعبر الرّدهة المفضية إلى غرفتي معتذرةً له: "لا بأس، بوسعي الوصولُ بمفردي ،اطمئِنَّ يا جاك".

"ورُكبتكِ؟".

"بوسعها بعْد أن تحملَني، كن واثقًا".

عبرنا النافذة المطلّة على الغابة الكثيفة، وتوقّفنا للحظة، كانت هناك الكثير من الأشجار المتشابكة، وتقصّدت أن أركّز نظري على واحدةٍ من بينها.

قال يكسر الصّمت: "أحببتُ حديثكما، ورغبتك في الانفصال عن المكان، وأعتقد حتمًا أنّنا نتشارك بعض الأشياء".

"أصحيحٌ ما تقول؟".

منعته عن الإجابة أصوات خطوات شيلي في نهاية الرّدهة، فانتظر حتّى سمع الباب يُغلق.

قال بصوتٍ أكثر نعومة وخفوتًا، وكأنّه يفشي إليَّ بسرٍّ ما: "التحقتُ مرّة بمدرسة للفنون".

"أدرستَ الفنون؟".

"درستها لسنة واحدة في الكلّية، عشتها وكأنّها حياة أخرى لا تخصّني".

"ولِم درستها لسنة واحدة؟".

"لم أُوفّق فيها".

"ولِم ذاك؟".

"لم أكن جاهزًا، ارتكبتُ بعض الأخطاء، ففُصلت من الكلّية، لطالما ظننتُ أنّني سأكون فنّانًا محترفًا، وأنّ هذه ستكون هُويّتي، ولكنني اليوم هنا، أعمل في مكانٍ أشبه بـ"...

توقّف، ولم يُنهِ عبارته، مكانٌ كهذا؟!

سألته: "ألا يُعجبك هذا المكان؟".

"إنّه مكان جيّد، ولكنّه مختلف عمّا أراده الشّاب جاك، وعمّا تطلّعت إليه نفسه ذات يوم، هذا كلّ ما في الأمر".

أعتقد أنّه لا يزال شابًّا، هذا ما حدّثت به نفسي وأنا أولّي وجهي عن النّافذة، وأواصل السّيرَ، ثمّ أردفتُ:

"حسنٌ، أنا لم أدرس الفنون، ولم تكن مجالًا لتخصّصي الأكاديميّ، وعليه فأنت أكثر حظوةً منّي، لقد أثبتَّ قدمك في مسارٍ ما، وعليك أن تكملَ خطواتك بثباتٍ، فلك المستقبلُ، وأمّا أنا فخطواتي كما ترى ثقيلةٌ منهكةٌ".

نصل إلى غرفتي ببابها الأحمر، الّذي عُلّقت عليه إشارة تحمل اسمي "بيني"، كانت جديدة، ندخل معًا فأجلس على مقعدي.

"في السّنوات الأخيرة التي عشتها في شقّتي، شعرتُ أنّ الفرص فاتتني جميعها، وأنّ كلّ شيء استحال إلى النّهاية، فلن أحظى بالمزيد من التّجارِب، ولا التّحدّيات، ولن أنشئ علاقات جديدة، من المخيف أن تشعر بانتهاء كلّ شيء، خاصّة في وحدتك".

حاولتُ يائسة أن أحتفظ بهذا لنفسي، ولكنّ جاك يرى عينيَّ تغرورقان بالدّموع.

قلتُ: "أعتذر".

قال: "لا تعتذري".

فاستغرقني الأمر لحظة لأستجمع نفسي من جديد.

قال: "ما الخطب؟ ما بكِ؟".

"لا شيء، هذا بالضبط ما يزعجني، لا خطب في هذا المكان، في الواقع، إنّه مكان جميل".

تمتدّ يدي إلى منديلٍ، وأواصل:

"لأوّل مرّة منذ زمان طويل، أشعر أنّني بخير، نمتُ بصورةٍ جيّدةٍ، وتناولت طعامي بشهيّةٍ، وتحدّثت إلى شخصٍ آخر في سنّي، أنا سعيدةٌ بكلّ ما حدث في يومٍ واحدٍ لا غير، وبما يغمرني من مشاعر".

بِتُؤدَةٍ يحطّ يده على كتفي، أمسح من على وجنتيَّ دموعًا لم أستطع إخفاءَها، أسير خطواتٍ في غرفتي، ثمّ أعود إلى مقعدي، أزفر الهواء، أغمض عينيَّ، وأريح رأسي إلى الخلف، أظل على هذه الحال حتى أتذكر ما كان على مكتبي هذا الصّباح.

سألتُ بعد أن فتحتُ عينيّ: "جاك، ما مصدر الألوان الجديدة والفراشي؟".

ولكنه لم يكن هناك ساعتها، لقد غادر الغرفة في غفلةٍ منّي.

استيقظتُ وأنا على المقعد، رأسي إلى الخلف، وقدماي مرتفعتان قليلًا، ثمّة غطاءٌ على ساقيّ، وكأس ماءٍ على جانب الطاولة، لا بدّ أنني غفوتُ في قيلولة لم أخطّط لها.

ثم ألحظ أمرًا: شيلي في غرفتي، كانت في زاوية منها، تقف هناك فحسب، وقد بدلت فستانها الأحمر، وارتدت ثيابًا أكثر عمليّة، كنزة، وبنطال جينز. تتقدّم نحوي، وتنحني، وتلمس وجنتي بظاهر يدها، بحنوّ أمٍّ على وليدها، أحسستُ بقفازها الرقيق والشفاف باردًا ورطبًا على جلدي.

"وجدتك تنامين بهدوء شديد وسلام، فلم أودَّ إزعاجكِ".

حاولتُ ابتلاع ريقي، قلتُ: "كم مضى على نومي؟ أشعر بعطشٍ رهيبٍ".

ناولتني الماء قائلة: "هاكِ"، وشاهدتني أنهي الكأس كاملة.

"هناك هديّة في انتظاركِ صباح الغد، ستحظين بيوم المنتجع".

"يوم ماذا؟".

"المنتجع، سيُغسل شعركِ ،ويُقصّ، وسيُعتنى بأظافركِ".

أنظر إلى أظافري القذرة والخشنة.

قلتُ: "أليس في الأمر من عبءٍ عليكم".

قالت: "على الإطلاق، بل سيكون هذا مطلوبًا للحفلة، ستُحبين ذلك، ولكن في البداية، آن أوان استحمامك".

وجدتُ في المياه السّاخنة راحةً لم أشعر بها منذ زمنٍ بعيدٍ، فاستسلمتُ لها، وظللتُ أتلذّذ مرورها على رأسي وعلى رقبتي ووجهي، كما لو أنّها كفٌّ ممتلئة بالحنانِ، سرت في كامل أنحاء جسدي حيويّةٌ، ومنحني الماءُ الدّافئ طاقةً عظيمةً كنت أحتاجها، غير أنّ إصرار شيلي على مرافقتي قلّص من حجم بهجتي؛ فقد وددت أن أتمتّع في تلك اللّحظات بشيءٍ من الخصوصيّةِ.

خلعت حذاءها، وارتدت رداء مضادًّا للماء فوق ثيابها، وتسمّرت واقفةً بجانب حجرة الاستحمام الضّخمة، فيما كنت أنعُم بدفق المياه السّاخنة.

قلتُ: "بإمكاني الانتهاء من ذلك وحدي، ففي شقّتي لم يساعدني أحد".

"أعلم يا عزيزتي، ولكن تذكّري أنّكِ هنا بيننا لتحظي بالمساعدة".

كان ضغط الماء أقوى بكثير مما اعتدتُ عليه في شقتي، وكان لوقعه الأثرُ الطّيّب على بشرتي، تناولت شيلي ليفة، وبدأت تفرك ظهري، وكان ملمس ردائها كملمس معطف المطر على جلدي.

"ارفعي ذراعيكِ رجاءً".

أذعن لطلبها، فتهمّ بغسل أسفلها، أتحرّج من أن أنظر إلى الخلف، فقد بدا لي الأمر غريبًا؛ إذ لم يسبق لأحدهم أن رافقني ساعة الاستحمام، ومدّ لي يدَ المساعدة، لقد كنت في غنًى عن هذا كلّه، أحسست باقتراب شيلي الشّديد منّي، وازددت توجّسًا، ظللنا صامتَيْن، فيما كان البخار يتصاعد تتركني من حولنا.

في ذلك الصّمت المطبق تناهى إلى سمعي صوتُ دندنةٍ، بدأت خافتة، ثمّ أخذت في العلوّ، إنّه اللّحن نفسه الّذي سبق لشيلي أن دندنته

ساعة الاجتماع، إنّه لحن أغنية أنيت هانشاو، هذا اللحن الضّارب في القِدم، دون أن تتوقّف عمّا تفعله بجسدي ظلّت تدندن، أمّا أنا فكانت تحدوني الرّغبة أن أكون بمفردي.

أوقفت تدفّق الماء، وناولتني منشفة ذات زغبٍ.

"أتودّين مساعدةً في تنشيف جسدكِ؟".

قلتُ: "لا".

"سأحضر لكِ رداء النّوم".

"هل حان أوان النوم بهذه السّرعة؟".

عبرَ فتحةٍ صغيرةٍ في باب الحمّام رمقت العتمةَ تنتشر في الخارجِ، وأمكنني سماع شيلي تفتح جارور خزانتي، لقد مرّ الوقتُ بسرعةٍ لم أتصوّرها، ساعدتني شيلي بعد ذلك على أن أرتدي ثيابَ النّوم، وعلى أن أخلدَ من جديدٍ إلى النّومِ.

قلتُ: "لم أدرك أن الوقت قد تأخر، لا بدّ أنّ قيلولتي كانت طويلة، هل تناولنا العشاء؟".

قالت: "إنّي مسرورة لتأقلمكِ مع المكان، ونومك المريح هنا، فهذا مُهم للغاية".

كانت قد خلعت رداء الاستحمام الأبيض، ولكنّها تركت القفّازين على يديها، شعرتُ بالسّرير دافئًا ومريحًا كما في اللّيلة الماضية، وذلك بعد أن رفعتُ اللّحاف حتّى ذقني، شعرتُ أنّني في حضنٍ دافئ، محميّة تمامًا، أغلقتُ عينيَّ، وشعرتُ بنفسي أغرق في النّوم فورًا.

سمعتُها: "ليلة طيّبة يا عزيزتي، ونومًا هنيئًا".

نهضتُ فجأةً، فوجدتُ أنّ العتمةَ ما زالت تبسط أجنحتَها على المكان، تساءلتُ لوهلةٍ، "أين أنا؟"، لأتذكّر في اللّحظةِ نفسِها أنّني الآن وهنا، في غرفتي في دار أشجار الأرز السّتّ، قدّرتُ في غيابِ ساعتي الّتي تعوّدتُ وضعها إلى جانب السّرير، أنّه منتصف اللّيلِ، كان الهدوء يخيّم على المكان، ولم يكن ثمّة من ضوءٍ يخرق عتمة مدخل الغرفة، والجميع نيام، أشعرُ بضربٍ غريبٍ من النّشاطِ، وتراودني من حيث لا أعلم رغبةٌ في أن أرسمَ، بل حاجةٌ عميقة وملحّة إلى أن أفعلَ.

نهضتُ على غير عادتي بخفّة فتاةٍ عشرينيّةٍ، حتّى إنّني نسيتُ أن أرتدي معطفي الصّوفيّ، أو جواربي، أو نعالي، وتوجّهت إلى مكتبي حيث الفراشي الجديدة، أتناول واحدة، وألمس رأسها النّاعم بإصبعي، ثمّ أشمُّه.

أضيء مصباح المكتب، ولأوّل مرة منذ سنين عديدة، أبدأ العمل على لوحة جديدة.

لا أعرف كم مضى عليَّ وأنا أعمل آنذاك، عارية القدميْن، شديدة التّركيز، ولكنني في لحظة ما، شعرتُ بالإرهاق، فعدتُ إلى سريري.

"بيني... بيني؟".

صوتٌ ما، ناعمٌ ومكتومٌ، يتحدّث إليّ.

أفتح عينيَّ، فأرى جاك يقف إلى جانب سريري، حاملًا مناشفَ نظيفة ومطويّة، مجدّدًا.

قال: "صباحَ الخير".

تختلط عليَّ الأمورُ، ويتوه فكري، يستغرقني الأمر لحظة لأفهم: ضوء الشّمس يعبر غرفتي بهدوء، الأشجار خارج نافذتي، وجسدي أسفل الغطاء.

لا بدّ أنّ الصّباح قد حلَّ.

قال: "كيف كان نومكِ؟ أردتُ أن أضع هذه لأجلكِ فقط".

كانت عيناه منتفختيْن، وأكثر سوادًا، بدا مختلفًا.

قلتُ أرفع يدي إلى رأسي: "نمتُ ...جيّدًا، ماذا عنك؟".

ألقي نظرة على مكتبي، لأجد لوحة ليلة البارحة مفقودةً، لا بدّ أنّني وضعتها في مكان ما، خبأتها، لحسن الحظّ، فلطالما شعرتُ أنّ عملي يخصّني، لا سيَّما عندما أكون في بدايته.

"يجدر بي اصطحابكِ إلى المتجع، ولكن بعد أن تتناولي فطوركِ".

أظهرتُ إيماءة بسيطة تعبّر عن موافقتي.

في غرفة الطّعام، يخبرني جاك بأنّ البقيّة انتهوا من أطباقهم، وأنني أطلتُ النّوم، فأتحسّر، كنت أتوق إلى تناول الطّعام مع المجموعة، وبخاصّة هيلبرت، كنتُ أودّ رؤيته. عندما انتهيتُ من فطوري، تناول جاك الطّبق، وبدلًا من العودة إلى غرفتي، سرنا في الاتّجاه المعاكس، نهاية الرّدهة، إلى غرفة لم أدخلها من قبل.

بدت مثل صالونٍ ذي ترتيبٍ مؤقّتٍ، عُلّقت مرآة ضخمة على الحائط، حوضٌ مع صنبور، ومقعد دوّار.

سألتُ: "ما هذه الرّائحة؟".

قال: "الزّيوت العطريّة، فهي تساعد الجسد على التّخلّص من

السّموم".

يساعدني جاك في الجلوس على كرسيٍّ أمام حوضٍ صغير، كان للصّنبور عنقٌ طويل.

"سنبدأ بغسل شعركِ، استندي خلفًا، استرخي".

يضع منشفة على كتفيَّ، ويحني رأسي بملامحَ بهيّة إلى الخلف، باتّجاه الحوض الصّغير، يُسند رأسي إلى راحته بلطف، وفي اليد الأخرى يصوِّب المياه فوق شعري، أشعر بالمياه الدّافئة على فروة رأسي.

ليلة البارحة، استحمامٌ مع شيلي، واليوم يغسل لي جاك شعري، كنتُ أهمل مثلَ هذه الأمور المتعلّقة بالحياة الصّحّية، وأدَعُ نفسي تفتقر النّضارة أكثر فأكثر، ينتقل دفء المياه من رأسي إلى شعري وإلى ذراعيّ، وسائر أنحاء جسدي، فتنتابني قشعريرةٌ.

أغمض عينيّ.

أتساءل عمّا تفعله روث الآن، ربّما تغفو في قيلولة على سريرها؟ وماذا عن بيت؟ إنّهم جميعًا في هذه الدّار معي، لا بد أنّهم قد حظوا جميعهم بأدوارهم هنا، على هذا الكرسيّ، حيث تُغسل شعورهم بالطّريقة ذاتها، هل يستمتعون بذلك كما أستمتع أنا؟ هل يحتاجون هذه العناية كما أحتاجها؟

أسمع جاك يعيد عنق الصّنبور، ويفتح علبة شامبو، يبدأ بفركه بفروة رأسي، وخصلات شعري بنعومة، فيهدأ رأسي ويرتخي.

قال: "كنتُ أفكّر بأمر ما، ربما تحتاجين أن يجلس أحدهم قبالتك، فترسمينه".

"ماذا؟".

"إنّي جادٌّ".

خمّنت لوهلةٍ أن أخبره بما حدث منتصفَ اللّيلة السّابقة؛ نهوضي من سريري، وإحساسي المباغت بما يشبه الإلهام والتّحفّز للرّسم دون سابق إنذارٍ ،وعودتي إلى الألوان بكلّ شغفٍ وحميميّةٍ، وشروعي بعدَ سنينٍ في إنجاز عملٍ جديدٍ، بيد أنّني تراجعتُ، وبدا لي أنني لست جاهزة بعد لمشاركة أمرٍ كهذا.

قلتُ: "لقد مضى زمن طويل، فعملي ضعيف، ولا أريد أن أصدم أحدًا بما أرسم".

"تبعًا للّوحات التي رأيتها، فقد أحببتُ أسلوبكِ، لا سيّما تلك اللّوحة الّتي تجسّد عينيْن، كانت مؤثرة للغاية، بل مذهلة، انغمستُ في السّيريالية كذلك من قبل، لديكِ خصيصة حالِة يمكنني فَهمها، والشّعور بها".

ظننتُ أنّ تلك اللوحة وُضعت في المخزن، إنّها من أقدم أعمالي.

سألته: "متى رأيتَ تلك اللّوحة؟".

"حالَ وصولك إلى هنا، تكفّلتُ بحملِ أغراضك، وبترتيبها من جديدٍ، اعذري فضولي، لم أستطع مقاومةَ رغبتي في أن أتملّى أعمالَك".

قلتُ: "لا، لا أمانع، ولكن... لم أعلم بوجود تلك اللّوحة في الدّار، إلّا السّاعة".

عندما وصلتُ إلى غرفتك هذا الصباح لمساعدتكِ على النّهوض، وجدتك غارقة في النّوم، أظنك كنتِ تحلمين، رأيتُ حركة عينيكِ، أردتُ منحك وقتًا للرّاحة، ففتحتُ خزانتك، وألقيتُ نظرة على تلك اللّوحة مجدّدًا، لقد شغلتْ ذهني مطوّلًا منذ رأيتها، إنّها رائعة يا بيني لأنّها."...

قاطعته بحدّة: "إنها قديمة للغاية، ولم أنتهِ منها بعد، لم أرسمها

لأعرضها على أحد".

"ولكنّني أحببتها كثيرًا".

لطالما عددتُ لوحاتي شأنًا خاصًّا وحميمًا، قلتُ: "لم أعتد على تلقّي إطراء كهذا، ربّما لم يجدر بي أن أكون بهذه الحساسيّة، أشكرك".

"كنتُ أفكّر لو ترسمين لوحة... لنا... نحن العاملين هنا، أو النزلاء، ربّما روث، أو هيلبرت".

"لا أدري إن كنتُ سأفعل ذلك".

"بيني، أرجو ألّا تمانعي حديثي هذا، ولكنّك تذكّرينني بوالدتي".

"حقًّا؟ هل أنتما مقرّبان من بعضكما؟".

"كنّا كذلك، امتلكتْ شعلة خاصّة، مثلكِ، لحظها جميع من حولها، كان لديها فضول كبير تجاه الحياة، ولطالما رأت الأمور من منظور مختلف".

"هل تسنّتْ لك رؤيتها كثيرًا؟".

"تُوفّيت في شبابي".

قلتُ: "آسَف لذلك، كم كان عمرك؟".

"سبعة عشر عامًا، وكما قلتِ يا بيني، فإنّ العائلات جميعها معقّدة".

هل قلتُ ذلك بالفعل؟

قلتُ أعود في ذاكرتي: "كانت أمي طيّبة، ولكن غائبة كثيرًا، فاعتاد والدي غسل شعري، أعني في طفولتي، كان يصنع من يده حاجزًا على شكل هلال، ويثبته أعلى جبهتي لئلّا يصل الصّابون إلى عينيَّ".

لا أصدّق أنّني ما زلتُ أذكر هذا، فذكرياتي عن والدي نادرة للغاية، لم يكن ليِّنَ الجانب على الدّوام، ولكنّه كان طيّبًا، وقدَّم أفضل ما لديه.

يحمي جاك عينيَّ من الماء والصّابون، ويصمت كلانا، كلٌّ تائه في فكره، كلّ ما أسمعه المياه المتدفقة، وبعد دقيقة أو اثنتين، أدرك أنّ المياه لا تزال متدفقة، ولكن يد جاك تختفي من على رأسي.

سمعتُ صوتًا: "ليس هناك ما هو أكثر إراحةً للبدن من المياه السّاخنة الممتزجة بالصّابون".

إنّها هي، شيلي.

أفتح عينيَّ، وما يزال رأسي مستندًا إلى الخلف، أنظر إلى الأعلى حيث السّقف، فأرى وجهها يعلو وجهي، كانت تضع مُحدّد العينيْن، تمكنتُ من شمِّ عطرها.

قالت: "أحبّ شعركِ، إنّه ناعم جدًّا."

تتابع غسل شعري من الصّابون وهي تحدّثني، كانت لمستها أكثر حزمًا وصلابة، خلافًا لما في لمسة جاك من لطفٍ ونعومةٍ.

سألتها: "أين جاك؟".

قالت: "في مكانٍ ما في الجوار، بيني، إنّكِ تُدهشينني، باستقلالك وقوّتكِ".

"لستُ أكيدة أنّكِ تصفين بذلك عجوزًا تحتاج مساعدة في غسل شعرها".

"إنّنا جميعًا بحاجة إلى المساعدة، لا يمكن لأحد أن يُقدم على أيّ أمرٍ من دون مساعدة الآخرين، إنّما أتكلّم عن روحكِ، واتّجاهك، والأخلاق التي توجّه عملكِ، أتحدّث عن لوحتكِ".

"لوحتي؟".

"رأيتُ ما تعملين عليه، إنّكِ موهوبة للغاية".

انقبض قلبي، كيف أمكنها أن ترى اللّوحة؟ بدأتُها في اللّيلة الماضية

فقط، ومن ثمّ خبّأتها، ألم أخبّئها؟ لا أحبّ هذا على الإطلاق، إنّه تطفّلٌ صريحٌ.

سألتها: "رأيتِ لوحتي؟".

أومأت.

قلتُ: "ولكنّها شأن شخصيّ، أليس كذلك؟".

"نحن واحدٌ هنا، ولا أسرار بيننا، ثمّ إنّه يجدر بي أن أعرف كلّ ما يتعلّق بكم بأدقّ تفاصيله".

تلفُّ شعري بالمنشفة، وتقبض عليه، ثمّ تسحبها، تُحرّك كرسيّي جهة المرآة المعلّقة على الجدار.

إنّها تعرف الكثير عنّي، عن عملي، وحياتي، ولكنّي لا أعرف شيئًا عنها.

سألتها: "من تكونين؟".

تراجعت خطوة إلى الخلف، ومال رأسها إلى أحد الجانبيْن، سألت: "ما الّذي تقصدينه؟".

"أخبرني جاك القليلَ عنكِ، قال إنّكِ أكاديمية، فكيف انتهى المطاف بأكاديميّة لإدارة دارٍ للمسنّين؟".

فهمتُ من تعابيرَ بدت على قسماتها، وعلى سائر جسدها، أنّ جاك قد أسرّ لي بما لا يجدر به أن يفعلَ.

"بيني، ليست هذه دارًا للمسنّين، بل منشأة صغيرة لتقديم الرّعاية، ولستُ واثقة ممّا قاله جاك، ولكنّني قبل أن أنشئ دار أشجار الأرز السّتّ، درستُ العلوم".

"أيّ علوم؟".

"الكيمياء العضويّة في علم الأحياء، وإن سألتِني عمّا أردتُه لنفسي

وأنا في الثانوية، فسأجيبكِ أنني أردتُ أن أصبح عالمة أحياء تأمّلية".

"عالمة أحياء تأملية؟ أحبَّ والدي القراءة في العلوم، كان يشتري لي كتبًا عن مختلف المواضيع، ولكنني لم أسمع بهذا من قبل".

"ما يزال علم الأحياء بعيدًا عن الجانب النّظريّ، فهو مستند في الأصل إلى الملاحظة والتّجربة، أمّا أنا فأميل أكثر إلى النّظريِّ فيه".

"النّظريِّ؟".

"لا سيَّما ما يتعلق بالحدود التي نعرفها، فالعالم الطبيعيّ أكثر مرونة في حدوده ممّا يعتقده البشر". مكتبة سُر مَن قرأ

بدت متحمّسة في حديثها، وصريحة، وأقلّ رسميّة ممّا عرفتها، سألتها: "وكيف ذلك؟".

"حسنٌ، هناك العديد من الأمثلة، فهل تعرفين ما هي الأشنات؟".

"تلك الأشياء الخضراء التي تنمو على لحاء الأشجار؟".

"أجل، ليس للأشنات مكوِّن واحد يخصّها، بل إنّها نتاج علاقة تكافليّة بين طحلبٍ وفطر، وأجد هذا رائعًا، ولكنَّ علاقتهما التكافليّة قويّة إلى الدّرجة الّتي تجعلهما يظهران على شكل كائن حيّ واحد، ندعوه بالأشنات".

علاقة تكافليّة إذًا؟

سألتها وقد صعب عليّ متابعة دفق أفكارها: "يظهران على شكل كائن حيٍّ واحد؟".

"وكأنّهما كينونة واحدة ،بحيث أنّك متى أمعنت النّظرَ في تكوين هذا الكائن الحيّ، وجدت أنّك مدفوعة إلى التّساؤل ما إذا كان يتوجّبُ عليك النّظر في كائنٍ واحدٍ لا غير، أم في كائناتٍ متعدّدة، فهل أنا ما أنا عليه؟ أم أنا ما نحن عليه؟ إن هذا أشبه بالدوران الذي تعتمده الأيائل،

فهل نعدها كائنًا واحدًا، أم كائنات عدة؟ نرى قطيعًا منها يدور في دائرة ضيّقة، عند شعوره بالتهديد، وذلك كي لا يُستهدَف أيُّ أيلٍ منها، تخيّلي لو كنّا جميعًا مرتبطين ببعضنا كهذه الأيائل، كم كان حالنا ليكون أفضل بكثيرٍ".

تخيّلتُ نفسي فجأة أدور في دائرة ضيّقة مع هيلبرت وروث وبيت، نحن الأربعة محتشدونَ معًا ،وكلٌّ منا في ظهر الآخر، لنؤمّن لأنفسنا حمايةً جماعيّةً.

وفي حديثها، كانت تتناول المُجفّف، تضغط على زرّ التّشغيل، وتبدأ في تجفيف شعري وتمشيطه.

لماذا لم يُنهِ جاك تصفيف شعري؟ لماذا غادرني؟ لماذا تبدلت أدوارهما؟ إنّها لم تخبرني حتّى إلى أين ذهب، شعرتُ بانقباض معدتي، سألتها: "وكيف انتهى بكِ المطاف إلى هنا؟ تمارسين هذا العمل؟".

"ورث والداي هذه الدّار عن جدّي وجدّتي، وجعلاها مصيفًا، لطالما أحببته في صغري، وتشوّقتُ إلى زيارته، وجدتُ فيه من أسباب المتعة والارتياح ما لم أشعر به في أيّ مكانٍ آخرَ، كان شبيهًا في تصوّري الطّفوليّ بتلك المنازل الّتي كنت أراها في الأفلام ،بطابَعها العجيب والمثير للدّهشة، توالت السّنواتُ، وكبر فيها تعلّقي بالبيت، ولكنّني كنتُ وحيدةً على الدّوام، وبدا لي أنّ الاستمتاع بروعة المكان سيكون حتمًا أكبرَ لو استطعتُ أن أجمعَ من حولي أصدقاء، يشاركونني الفضاء، ويشاركونني الوقتَ هنا."...

هدأ صوتها، ثمّ انقطع، فشعرتُ بالرّجفة في جسدي.

قالت: "تمضي الأيّام والسّنوات بسرعة كبيرة، أتمنى لو كانت هناك طريقة لإبطاء كلّ شيء، ألا تتمنّين ذلك أيضًا؟ أن تملكي المزيد من

الوقت، الوقت هو أهمُّ ما في الوجود".

تنحّي المجفف جانبًا، وتتناول مشطًا ومقصًّا، تتوجّه عيناي إلى المرآة، فأرى إلى جانبها سلّتين من البلاستيك، تبدو لي إحداهما فارغة، فيما ضمّت الثّانية شعرًا مقصوصًا.

قلتُ: "أعتقد أنّ الجميع يتمنّون وقتًا أطول، ربّما كانت إجابتي ستكون مختلفةً قبل أن أنزلَ الدّارَ، ولكنّني اليومَ أريد المزيد من الوقت... أريده أكثر من أيّ وقتٍ مضى".

أفكّر في معنًى محدّدٍ لهذا المزيد الّذي أريده، فأجد أنّه ببساطةٍ المزيد من الوقت تحديدًا بصحبة بيت وروث وهيلبرت، الجلوس بينهم وتناول الطّعام ثمّ الخلود إلى النّوم، كما يعني لي ذلك أن أرسم أكثر، ولكن ما الذي قد يعنيه الوقت المديد إن كان العمل لانهائيًّا؟ ما الّذي قد تعنيه العلاقة إن استمرّت أبدًا؟ ما الّذي سيغدو عليه يومٌ ما إن لم ينتهِ؟

يريد الجميع المزيد، على حدِّ قولها، يريدون المزيد، والمزيد، والمزيد، والمزيد... إلى ما لا نهاية.

قلتُ: "ماذا لو كان الوقت هو كل ما بحوزتكِ؟ ربّما لو امتلكنا الوقت كلّه في العالم، فستبدو لنا الحياة بلا معنًى، أو ستعني الأسوأ من ذلك".

لا يبدو لي المقصّ الّذي تستخدمه لقصّ شعري جديدًا، ففي كلّ مرّة تنطبق فيها الشّفرتان تُحدثان صوتًا مزعجًا، قالت: "لا يا بيني، إنّك مخطئة في ذلك، لا تُردّدي هذا ثانية، رجاءً".

أنظر إلى حجري، تتابع هي: "لن يكون المزيد من الوقت سوى ميزة جيّدة، فمن واجبنا تكوين العلاقات، وإنشاء روابط قويّة، طالما أمكننا

ذلك، ليس هناك خطبٌ في الاعتماد على الآخرين وطلب المساعدة، بل هناك قوّة كامنة في ذلك، أي في التّضحية بهُويّتك الفرديّة، وأن تصبحي جزءًا من شيء أكبر منكِ".

يسقط شعري على الأرض، وعلى قدميها، كانت تقلّمه، وتقصّه ليغدو قصيرًا، بالكاد يصل كتفيَّ، وليكون في محصّل الأمر بسيطًا، وذا مظهر عاديٍّ.

لم تسألني عن قَصّة الشّعر الّتي أريدها، على الإطلاق.

قالت: "عندما كنتُ صغيرة، أحببتُ قصّ شعري، وأحببتُ فكرة أنّه سينمو من جديدٍ، بصرف النّظر عن أيّ أمرٍ، يجب أن نحظى دائمًا بشعرٍ مرتّب وأنيق ومعتنًى به، فهو جزء ممَّن نكون".

أشاهدها على المرآة، تتوقّف عن العمل، وتخطو خطوة إلى الوراء، ممعنة النظر إلى شعري، والمقصّ إلى جانبها.

قالت تنظر إليَّ عبر المرآة: "إنّي مسرورة لاستمتاعكِ في الحديث مع هيلبرت".

أشعر بوجنتيَّ تتورّدان.

"إنّه طيّب القلب، أليس كذلك؟ كما أنّه ذكيٌّ، لا يزال يعمل على معادلاته الرّياضيّة كلّ يوم، نشجعكم جميعًا على أن تركّزوا على أعمالكم، وأن تستغلّوا الوقت المتوفّر لكم هنا، إنّنا نحظى بمجموعة متميّزة".

تنظر شيلي مجدّدًا إلى عينيَّ عبر المرآة، وتتابع القصّ.

لم أطمح يومًا إلى أن أكونَ في علاقةٍ جادّةٍ مع أحدهم، كنت مطلعَ شبيبتي أواعدُ الكثيرين، وأرافق الواحدَ منهم مرّةً أو مرّتيْن، ولم أكن أكترثُ ،وخلافًا لأغلب صديقاتي اللاتي كنّ راغبات في الارتباط، وفي

إنجاب الأطفال، كانت تعنيني التّجربة في حدّ ذاتها، كان يعنيني أن أعيشها، وحصل في إحدى الحفلات أن التقيت أحدَهم ،وكانت المناسبة تتعلّق بعرضٍ افتتاحيّ لأعماله، لفت انتباهي ما كان يميّز سلوكه من حيويّةٍ، وما ميّز حديثه من طلاقةٍ، وتبيّنت ببسرٍ عنايته بي، وسعيه نحوي، لم يكن من ذلك الصّنف الّذي يُحسن مداراة مشاعره، كان تعلّقه بي واضحًا ومكشوفًا، وأحببتُ الثقة التي كان عليها. لم يمرّ أكثر من شهريْن على لقائنا؛ حتّى قرّرنا دون تردّدٍ أن نتشارك العيش.

لم أدرك آنذاك أنني سأقضي بقية حياتي الرّاشدة معه.

حتى وصلتُ إلى هنا.

يصعب عليَّ تذكر أكثر من ذلك، عشنا الحبّ والسّعادة في البداياتِ كأجمل ما يكون، ولكنّ الأمور لم تكن بعد ذلك على ما يرام، لقد التبست ،وشابَها الغموض، ولفّها الإبهامُ، صارت علاقتنا محفوفةً بالحَيرة، وبعدم الارتياح في تفاصيلَ كثيرةٍ.

قلتُ: "من السّهل بَدء حديثٍ مع هيلبرت، فهو ينتظر أن يسأله أحدُهم، ثمّ يقدّم له أفكارَه، يريد أن يسألني عن أفكاري كذلك، أعتقد أنّنا مختلفان جدًّا، فأنا لا أفهم العالم من منظوره، وهذا يروقني جدًّا، لقد كنت محاطة بالفنّانين لزمانٍ طويل، إنّي أثق به".

قالت شيلي: "يبدو لي أنّكِ معجبة به قليلًا يا بيني".

"إنّي كبيرة على هذا كلّه."

تبدأ في استخدام فرشاة ناعمة لإزالة قصاصات الشّعر حول وجهي ورقبتي.

قالت: "ناوليني يدكِ رجاءً".

أرفع لها يدي، فتتناولها شيلي، وتبدأ في تدليكها، وتفرك إبهاميها من

خلف القفازين براحة يدي، كانت لمستها قويّة، ولكن جميلة.

"للّمسة البشرية أهمية كبيرة، وأظنكِ قد عشتِ زمنًا من دونها".

إنّها مُحقّة في ذلك، لقد عشتُ زمنًا من دونها، فقدتُها معه في مُدَدٍ ليست باليسيرة، فلمساتنا أصابها الفتور، ولم تعد تحملُ أيّ حرارةٍ، كانت باردةً وبلا معنًى، أشعر بها ترفع إبهامي، وأشعر بقطعٍ في ظفري، إنّها تقص لي أظافري، وتستغرق وقتها في ذلك، مُمعنة في عملها.

"أظافركِ كشعركِ، صحّية، وقويّة، يمكننا أن نطليَها إن أحببتِ، ربّما باللون الورديّ؟ سيكون مناسبًا للحفلة".

تبدأ في قصّ أظافر يدي اليُسرى، وفي تقصيرها كثيرًا.

"أنا لا أطلي أظافري".

"لا بأس".

تقصّ ظفرًا آخر، وأسمع الصّوت النّاتج عن ذلك.

"لم أفهم الغاية من ذلك يومًا".

"لا مشكلة".

"إنّني أقضمها عادةً".

"تقضمين أظافركِ؟".

"أجل، لطالما اعتدتُ على ذلك".

تقصّ ظفرًا آخر.

قلتُ: "إن طليتِها مرّة، فسيتوجب عليكِ إعادة طلْيها من جديد عندما يبلى اللّون ويختفي".

"كما تُحبّين يا عزيزتي".

وفيما هي تتحدّث، تقصّ ظفرًا عميقًا، فيؤلمني ذلك، وأسحب يدي سريعًا.

"أوه، لا! أعتذر، لا بد أنّ ذلك آلمكِ، أليس كذلك؟".

تتراجع شيلي إلى الخلفِ قليلًا، فيما أتفحّص إصبعي، أخذَ في النّزفِ بعض الشّيء، ما جعلَ شيلي تسارع إلى شدّه بقوّةٍ، وتعصره بين يديها، واضعةً عليه عودًا من القطنِ، استطاعت في وقتٍ وجيزٍ السّيطرة على الأمرِ، حتّى إنّني لم أكد أشعر بشيءٍ يذكر.

"على الأقل فقد عرفنا أنّ دماءك صحّية ونشطة".

أسحب إصبعي من جديد، وأقرّبه من فمي، أمصُّ مكان النّزف ناظرةً إليها.

لفت انتباهي أحمر شفاهها الفاقع، وبدا لي أنّه أكثر بريقًا ولمعانًا من أيّ وقتٍ مضى.

أتحسّس سقوطَ قطرةٍ من العرقِ على مستوى إبطي، وأتلذّذ تدحرجها على جنبي، أتساءل في الأثناء، ما إذا كان دمُ أحدهم يمكن أن يبدوَ للرّائي أكثر حيويّةً وجَودةً من دمِ شخصٍ آخر؟

أقف أمام مكتبي بشعري المغسول والمقصوص، وبأظافري المقلمة، لقد رافقتني شيلي إلى غرفتي، وأخبرتني أنّ بإمكاني متابعة العمل.

وهي تغادر أثنت على شعري بقولها: "يبدو لي شعركِ رائعًا، حظًّا طيّبًا".

أتحسّس الجرح القديمَ على جبهتي، فأجد أنّه قد تلاشى، وتعافيتُ، أسعدني ذلك حتّى إنّني ابتسمتُ، وشعرت أنّني قادرةٌ في هذه المرحلة من حياتي على أن أتعافى.

أحسست بالأفضال الجليلة للنّوم على إدراكي وصفاء ذهني، لم يعد اللّيل ثقيلًا، مثلما كانَ، صرتُ قادرةً على أن أحظى بنصيبي منه دون عناءٍ حتّى انبلاج الصّباح، وهذا رائعٌ، أنامُ عميقًا حتّى إنّني لا أكاد أحلم بشيءٍ، وأستفيق نشطةً مقبلةً على الحياةِ.

أركّز مجدّدًا على اللوحة أمامي، وأشعر بالحرية التي يمدني بها عملي، أشعر بنفسي أكثر شبابًا، أهبط برأسي، وأنحني فوق المكتب، إذا شعرتُ باقتراب أحدهم، توقّفت عن العملِ، وأجلتُ بصري في المكان، فإذا عاد الهدوء، عدتُ بعزمٍ أكبرَ وبشغفٍ أشدّ.

أضاء مصباح الرّدهة فالتفتّ، ولكنّني لم أرَ أحدًا، لم يَطُل انتظاري لأرمق القطّ يدخل الغرفةَ متردّدًا، يفرك جسده بساقي، فأنحني مداعبةً أذنيْه.

أجده لطيفًا وصغيرًا، أشعر بضلوعه الرّفيعة، وأدرك أنّه صار هزيلًا، ولكنّه يُحبّ أن أداعب أذنيْه بهذه الطّريقة، وعندما يهرول

خارجًا، أعيد النّظر إلى لوحتي، ثمّ أرفع نظري مجدّدًا لأرى جاك يقف عند باب الغرفة.

توجّه إليّ بالحديث دون أن يطرق الباب كعادته: "من الجيّد رؤيتك تعملين على لوحة جديدة، لديَّ هديّة لكِ، جهازٌ يمنع الضّوضاء عنكِ، أشبه بسماعات الأذنين، ترتدينه على أذنيكِ، يحول بينك وبين صوت محيطكِ فلا تسمعين شيئًا".

لم أكن في واقع أمري ألقي بالًا إلى ما يصدر من أصواتٍ فيما يحيط بي من أشياء، فسألته:

"أيّ نوعٍ من الأصوات؟".

"أصوات ما يجري في الدّار، الأنابيب، والأرضية الخشبية، ونقل الخشب في اللّيالي الباردة، سأريكِ كيفيّة عملها، ستساعدك على التّركيز والانتباه".

يضع السّماعات على أذنيَّ، ويشغلها.

لم يكن مجرّد هدوءٍ، بل صمتًا مطلقًا.

لم أختبر هذا الشّعور من قبل، إلا وأنا تحت المياه، يبدأ جاك في الحديث، فأرى شفتيه تتحرّكان دون أن أسمع شيئًا يُذكر.

يتواصلُ الصّمتُ فيما كان جاك يجوس خلال المكان، وينتقلُ بين أركانه، يطرق الجدارَ، ويقضي شؤونًا، كما لو أنّني في جوفِ المحيط، أو في حلمٍ ما، كان الأمر أشبه ما يكون بالتّحليق بعيدًا، بيدَ أنّ الصّمتَ رغم روعته بدا لي مزعجًا، فليس يجدر بالمرء أن ينفصلَ تمامًا عمّا حوله.

بدا لي مزعجًا ومثيرًا للقلق ألّا أسمع الأصوات، ولا الخطوات، ولا الأبواب تُفتح وتُغلق، وألّا أسمع الرّياح تتخلّل أغصان الشّجر، ذلك الصوت الجميل الذي أحببتُ سماعه في الحديقة العامّة.

لم أكن أعرف تحديدًا ما إذا كنت أميلُ إلى ذلك النّوع من الصّمت الّذي أراحني ،وبثَّ فيّ الإحساس بالطّمأنينة، أم أنّي أمقته.

يرفع جاك السّماعات عن أذنيَّ.

"أليس هذا رائعًا؟ لدى الجميع هنا سمّاعات مثلها، فهم يحبّونها".

"أفضّل الاستماع إلى الموسيقا، لقد اعتدتُ الاستماع إليها طَوال الوقت".

"صمّمت هذه السماعات لمنع الملهيات عن المرء، تستخدمها روث في أثناء عملها".

"عملها؟".

"إنّها تُترجم نصوصًا مختلفة إلى الإنجليزيّة، غالبًا من الفرنسيّة، وتظلُّ على ذلك لساعات".

"هل هناك طريقة لتشغيل الموسيقا في هذه السّماعات؟ من فضلك".

"يمكنني أن أحاول ذلك يا بيني".

يتوجّه إلى السّرير، ويبدأ في نزع الملاءات.

وأنا أتابعه يخلع عن الوسائد أغطيتها، أستعيد ذكرى بعيدةً، خطرت لي دون سابق إنذارٍ.

قلتُ: "عندما كان والدي يغيّر ملاءات سريري، في بعض الأحيان، كنّا نلعب هذه اللّعبة، لا أعرف كيف كانت تبدأ، ولكنه كان يجمع الملاءات المتّسخة عن السّرير، ويلقيها على الأرض على شكل كُرة فوضويّة، وكنتُ أختبئ أسفلها، كنتُ أخبره بأنَّ طردًا ينتظره، فكان يهبط الدّرج، ويتحسّس الكومة بيديْه قائلًا: أتساءل ما طبيعة هذا الطّرد، وكنتُ بالكاد أمسك نفسي عن الضّحك، وعندها كان يرفع

الملاءات، ويقول: أوه! إنّه أنتِ. كان ذلك ماتعًا للغاية، أن أرى وجهه المبتسم، وعيناه مثبتتان علي، كنّا نلعب هذه اللّعبة مرارًا، دون أن أشعر بالملل، كنت أجدُ في داخلي تلك السّعادةَ نفسَها تتجدّد، كانت تلك لعبة بسيطة".

يقترب منّي جاك بالملاءات بين يديه، ومن دون أن يتفوّه بحرف، يلقي بواحدة على رأسي مازحًا ويقول ضاحكًا: "ما هذا الطّرد الغريب؟ يا بيني، ما الّذي وصل إلينا؟".

ضحكتُ، ولكنّني توقفتُ عن ذلك، أزلتُ الملاءة عن رأسي وتساءلتُ عن سبب تغييرها، فلقد نمتُ عليها مرّتين فقط.

سألته: "هل ستغسل الملاءات؟".

"ماذا؟".

"ملاءاتي، أتظنّ أنني بحاجة إلى تبديلها بهذه السّرعة؟".

قال: "نُحبّ أن تظل الملاءات نظيفة، فروث تكره المتّسخ منها".

يخطو إلى الخلف مثبتًا ناظريْه عليَّ، ومن ثمّ يلتفت والملاءات بين يديه، ويغادر الغرفة.

يجلس أربعتنا لتناول الطّعام في صمت، ورغم تلذّذنا به، فقد كنّا نتناوله بحِدّة ملحوظة، لقد امتلأت الطّاولة من جديد.

جعلني العملُ كاملَ الظّهيرة بشهيّةٍ أكبرَ، غيرَ أنّني ظللت رغمَ الجوعِ أفكّر في تعليق جاك الأخير.

لماذا قد يخبرني بأنّ روث تكره الملاءات المتّسخة؟ ما علاقة ذلك بي؟

تناولتُ اللّحم والأرز وقد أضيفت إليهما الصّلصة الحلوة والدبقة، إلى جانب الخبز الطّازج، والزّبدة الإضافيّة على الجانب، حدّقتُ بروث

طَوال تناولي الوجبة.

تكره روث الملاءات المتّسخة.

روث، تلك الخبيرة اللّغويّة، المترجمة، أخبرني جاك بأنّها تترجم لساعات متواصلة، عندما قابلتها لأوّل مرّة بدت لي كثيرة الكلام، منطلقة وضحوكة.

ولكنّها بدت لي اللّيلة صموتًا، تركّز نظرها مثلنا على وجبتها دون أن تنبس بكلمةٍ واحدةٍ.

واصلتُ استراقَ النّظر إليها، دون أن أحرجها، تمعّنت في جلستها، وقصّة شعرها، وفي بشرتها الناعمة، وطريقة إمساكها بالشّوكة، وانقلاب شفتيها عند تكشيرها، كانت جميلة جدًّا، وبدت لي في عنفوانها، لا شكّ عندي أنّها تصغرني سنًّا.

عندما رُفعت أطباقنا، وعاد بها جاك إلى المطبخ، كانت هي من مالت نحوي، ولمست ساقي أسفل الطّاولة، وبادرتني بالحديث، كما لو أنّها حدست أمرًا: "أتريدين الذّهاب إلى مكانٍ ما للحديث؟".

قلتُ: "أجل".

تقدّمتني روث إلى المقاعد المخصّصة في المدخل، وانتظرتني حتّى جلستُ، فجلستْ، سألتها: "كم مضى لكِ على النّزول في هذه الدّار؟".

تضحك روث، فقد بدا لها سؤالي سخيفًا وغير منتظرٍ.

"من الصّعب عليّ أن أعرف، كان بيت هنا أوّلًا، ثمّ هيلبرت، ثمّ أنتِ، والآن فنحن هنا جميعًا."

"نحنُ؟".

"أجل، نحنُ هنا جميعًا، في منزلنا أخيرًا ،وأبدًا."

"أبدًا؟".

ترفع روث يدًا إلى فمها لتخفي ضحكة، ثمّ تقف سريعًا، وتبدأ في الابتعاد، تلتفت وتشير إليَّ بأن أتبعها، وهي تكتم ضحكة ما، فأنهض، وأتبعها ببضع خطوات.

شعرتُ بخفّة خطواتها وأنا أتبعها، كانت خفيفة السّير على عكسي، سألتها: "هل تجدين المكان صاخبًا هنا؟ هل تسمعين أصواتًا؟".

قالت: "نملك هنا المكان والوقت للعمل، إنّنا محظوظون".

تحاول أن تزامن بين خطواتنا فلا تسبقني، ووجدنا أنفسنا في غرفة المنتجع، حيث غُسل شعري، كان الباب مفتوحًا، ولم يكن هناك أحد، تتوقّف روث فأتوقّف بدوري.

"في اليوم الأوّل، شيلي تغسل الشعر".

قلتُ: "أجل، هل قلّمت أظافركِ؟".

ظهرت تكشيرة على ملامحها، ثمّ غمزة، وهي تقودني إلى الدّاخل، تشير إليَّ بالجلوس على الكرسيّ.

سألتها: "أيجدر بنا أن نكون هنا؟".

"ولِمَ لا؟"، ومن ثَمَّ تحمل علبة طلاء أظافر وتقول: "لأجل الحفلة".

كانت تقهقه وهي تتحرّك أمامي في المكان.

"هل تزوّجتِ من قبل يا روث؟".

تفكر روث في الإجابة.

"ليس بعدُ، ولكنني آمل أن أتزوج يومًا ما."

"ولا تملكين أطفالًا أو بعضًا من أهلكِ ما زالوا على قيد الحياة؟".

"سأنجب بعد الزّواج".

"لا أعتقد أنّ أيًّا منّا لديه أحدٌ من عائلته على قيد الحياة، فليس هناك من يطمئنّ علينا، أو يسأل، أو يزورنا، هل يحظى أحدٌ بأيِّ زوّار؟".

"إنّنا هنا معًا، ولدينا كلّ ما نحتاجه، ألا تذكرين طلاء أظافركِ، وتجميل وجهكِ بالمساحيق أيّام الشّباب؟".

تقول ذلك وترفع يدها لتظهر لي أظافرها المطليّة جميعها بالأحمر، كأظافر شيلي، وعندما أمعن النّظر، أجد أنّ أحد أظافرها قد قُصَّ بصورة عميقة، كما حدث معي.

وفجأة لم أعد أستمع إليها، ولا إلى كلماتها، ولا إلى صوتها،

كانت تتكلم وشفتاها تتحركان، ولكنني لم أستطع سماع أيِّ صوت، أرفع يدي إلى أذني.

ينفتح فمها في ضحكة ضيّقة في البداية، ثمّ عريضة، ولكنّني لا أسمعها.

ما خطبي؟ أشاهد فمها يُفتح ويُغلق، وهلعي ينمو ويتضخّم أكثر، يدقُّ قلبي أسرع فأسرع، ويزداد ثقلًا.

ومن ثم، وبالسّرعة ذاتها التي فقدتُ بها السمع، يعود إليَّ من جديد، سألتني: "ماذا هناك؟ ما خطبكِ؟ تبدين شاحبة".

قلتُ: "لا شيء... أحبُّ لون أظافركِ، يناسبكِ الأحمر".

أنهض ببطء عن الكرسيّ لأقف إلى جانبها، كتفاي إلى جانب كتفيْها، ننظر معًا إلى المرآة.

قالت: "ألا يشعركِ هذا بمشاعرَ طيبة؟".

"ماذا؟".

قصّة شعري مماثلة تمامًا لقصّة شعرها، لم أكد ألحظ ذلك من قبل، أنظر إلى وجهي عن قربٍ، وبحذر، بطريقة لم أنظر بها إليه منذ سنين مضت، لم يرُق لي ذلك الوجه المتقدّم في السّن، الذي ينظر إليَّ عبر المرآة، فكَفَفتُ عن النّظر إليه.

ولكنّني علمتُ حينها أنّ بشرتي غدت أفضل من ذي قبل.

لقد باتت رقيقة، ربما لأنّني أنام جيّدًا، وآكل جيّدًا، نقف محدّقتيْن إلى صورنا في المرأة، وإلى بعضنا بعضًا، حتى تتحدّث روث.

"أتعتقدين أنّنا نروق له؟".

كانت أقدامنا قريبة من بعضها، تتلامسان من الجانب، أعادت شبك ذراعيْنا.

سألتُها: "نروق لمن؟".

دارت بعينيها مُجيبة: "لهيلبرت".

سألتها: "أأنتِ معجبة به؟".

"إنّه وسيم، وبالتّأكيد ذكي، طويلٌ، وأنيق الثّياب، ولكنّه مُملٌّ بعض

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشّيء".

قلتُ: "إنّ ذكاءه مُختلف، وهذا ما يروقني".

"هناك عِلل أسوأ من أن يكون المرء مُملًّا."

قلتُ: "أنتِ مُحقّة".

قالت: "كأن يحتاج أحدهم باستمرارٍ طمأنة الآخر طوال الوقت، أيّ شخص منغلق على نفسه".

قلتُ: "أجل، من الصّعب جدًّا العيش مع هؤلاء لزمانٍ طويل".

قالت: "أجل، إنّه لأمر مرهق".

قلتُ: "لأنّ الأمر يزداد سوءًا مع الوقت، ولا يتحسّن، فعندما تكونين مماثلة لشريككِ يظهر خطرٌ في أن تتّسم العلاقة بالشراكة التّعاونية بدلًا من التّقدير الحقيقيّ، يجب أن تتواجد تلك العاطفة المتجدّدة واللّامنتهية، فعندما بِلي ظاهر العلاقة وقدِم، لم أستغرب ذلك، ولم أتعجب، أتفهمين ما أشير إليه؟".

قالت: "أجل، نفهم ذلك".

"اختفت دهشتي منه، ولم أجد فيه تعقيدًا معيّنًا، بل أناه الدّاخلية".

"أيبدو لكِ هيلبرت معقّدًا يا بينيز؟".

وقبل أن أجيبها، سمعنا صوتًا، ربما صوتَ باب يُفتح.

قلتُ: "هشش! ما كان ذلك؟".

قالت روث: "أوه! لا يجدر بنا أن نكون هنا".

نسمع الصّوت من جديد.

"ظننتُكِ قلتِ ألا بأس في وجودنا هنا".

قالت تمسك بيدي: "لا، لا يجدر بنا الجلوس هنا، سنكون في مأزق، ستغضب منّا، لنذهب".

تسحب يدي نحو المدخل المعتم، وترفع إصبعًا إلى شفتيْها، وبنظرة مراوغة تغمز لي، وتعود إلى نهاية الرّدهة، أشاهدها تغادر.

انقبضت معدتي عندما أخبرتني أنّها ستغضب منّا، فقد تبدّلت نظرتها إلى الخوف، أنتظر حتّى لا أعود أسمع شيئًا، لا خطواتٍ ولا أصوات الأبواب، ألتفت وأنسلُّ بهدوء في الاتّجاه الآخر.

أسير على أطراف أصابعي في المدخل حتّى أعبر غرفة الطّعام، وعندها، تُضاء المصابيح، أسمع أحدهم في المطبخ، ربّما كانت هذه الأصوات التي سمعتها مع روث، لا بدّ أنّها عادت إلى غرفتها، أعلم أنّه يجدر بي العودة كذلك إلى غرفتي، ولكنني أسمع الصّوت من جديد.

تصدُر أصوات عديدة من منزلٍ قديمٍ كهذا، فهذا ما قاله جاك، أخطو ببطء عبر غرفة الطّعام، وأستند إلى الحائط بيدي لأدعم سيري، لا تبدو لي الغرفة مريحة وهي فارغة ومعتمة بهذا الشّكل، أسمع صوتًا شبيهًا بفتح النّافذة، فأصل إلى باب المطبخ، أدفعه بيدي وقد تملّكني الفضول من مصدر الصّوت، يُفتح الباب قليلًا، فتحة ضيّقة فحسب.

بالكاد تمكّنتُ من الرّؤية عبر ذلك الشّق الضّيق.

أفتح الباب أكثر وأخطو إلى الدّاخل، لا يضيء المصباح من تلقاء نفسه، فتحيطني العتمة، ولكنّني أميز وجود منضدة طويلة، ورفوفٍ عليها القدور والمقالي والأطباق، لم أتخيّل أن يكون المطبخ بهذه الضّخامة، بدا لي ممتدًّا، لِمَ لا يضيء المصباح؟ ألوّح بيدي آملة أن يشعر بها المستشعر، ولكن عبثًا.

أسمع الصوت من جديد، أرفع ناظريَّ، وألمح الحركة في نهاية المطبخ، أرى شخصًا ما هناك، إنّه جاك.

كان يدير ظهره إلى الباب، فلم يرَني، أخطو خطوتيْن مترددّتيْن باتجاهه، فجأة أجده يلتفت إليَّ.

كان قميصه الأبيض مفتوحًا، بدا متعرّقًا، وفي يده شيء ما. حمل كأسًا من النّبيذ.

"جاك؟".

أقترب منه محاولة الرّؤية أكثر، دمدم مع نفسه هامسًا: "كلّ ما أفعله هو العمل، والعمل، والعمل، كل يوم، إنها مهووسة، ولأجل ماذا؟ إنّني حتى لا أخرج من هذا المكان، ولكن لا خِيار لديَّ".

بدا مذعورًا، وهلعًا، ومحرجًا.

"بدأت العمل هنا، وظننتُ أنّ الأمر سيكون مؤقّتًا، وإلى حينٍ، ولكن هيهاتَ، فالحقيقة شيءٌ آخر غير ما نتصوّر، وإنّه لا يمكنني المغادرة!".

يراني وينظر إليَّ مباشرة ويقول: "إنّي جبان، نحنُ كلّنا جبناء، نخاف الشّيء ذاته".

سألته: "مِمَّ نخاف؟".

يمسح وجهه ويبكي، لا تجدر بي رؤية ذلك، لا يجدر بي أن أكونَ هنا.

يشرب جاك ما تبقّى في كأسه، ومن ثمّ يضحك، بدت ضحكة فاترة ذات صوتٍ غريب، صوت ألمٍ ألمَّ به، وكأنّه حيوان جريحٌ، كانت عيناه قاتمتيْن، وملامحه غير قابلةٍ للتّفسير. حاولتُ قول شيء، ولكنّني عجزتُ، لم أستطع أن أصدر صوتًا، مِمَّ نحن خائفان؟ أحاول مجدّدًا أن أقول شيئًا، ولكنني هذه المرة لم أتمكن من التلفّظ بما أريد، أضرب قدمي بالأرض علّها تصدر صوتًا يتردّد في الصّدى، ولكنّ شيئًا لا يصدر عنها.

ألتفت، وأخرج سريعًا قدر الإمكان.

أغادر المطبخَ، وأعبر غرفة الطّعام، أعبر المدخلَ مجدّدًا، ويبدو لي أنّ المكانَ ليس مريحًا مثلما اعتقدتُ، لقد أسأت تقديرَ الأمور، أو تسرّعتُ، كنت أخفق بكلّيّتي، وأنا أتابع السّيرَ، في محاولةٍ لتجاوز ما أصابني من هلعٍ، لم أكن أريد لأحدٍ أن يلحظَ ما ألمّ بي، أجلتُ بصري في الجدران، وفي السّقف، وفي الأرضيّة، فإذا هي متبدّلةٌ عن هيئتها الأولى.

أطرق الجدار بيدي، فيُصدر الصّوتَ المألوفَ ذاتَه، إنّه صوت اصطدام العظم بالخشب، أنصت إلى وقع خطواتي، وأسرع نحو غرفتي، أغلق البابَ، وأقف في العتمة، أنظر إلى السّرير الكبير والمريح، كان يناديني.

أشعر بنبض قلبي يهدأ، وأنفاسي تتباطأ.

أتمدّد على السرير، تحت الأغطية، وأغلق عينيَّ.

الأفكارُ تقضّ مضجعي، لم يكن هيّنًا ما حدث هذه اللّيلة، ولم أكن أتوقّع حدوثه، العشاء، والحديث مع روث، ورؤية جاك في تلك الحالة المأساوية، نظرته لي، مسحة الحزن على ملامحه، هل ينام هيلبرت في غرفته؟

قالت روث شيئًا عن غضب شيلي إنْ وجدتنا في غرفة المنتجع.

ووصفها جاك بالمهووسة.

ولكن مهووسة بماذا؟

أين شيلي؟ أين تذهب خلال اللّيل؟ هناك ألمٌ ثقيل في صدغي، إنّي أتعرّق، أشعر بالحرارة للحظة، ومن ثمّ البرودة في اللحظة الّتي تليها، أجلس، أقف، أخطو حول غرفتي، ما الّذي كان يفعله جاك هناك؟

توجَّب عليّ البقاء معه أكثر، أن أحاول مساعدته، كان مستاءً للغاية، ولكنّني لم أتمكّن من الكلام، ولا من إصدار أيّ صوت.

أخلع عنّي معطفي الصّوفي، ومن ثمّ أعيد ارتداءه. لا أستطيع الثّبات على حالة بعينها، أين تذهب شيلي في اللّيل؟

أضع يدي في جيب معطفي الصّوفيّ، أشعر بوجود شيءٍ ما، ورقة.

أخرجها، وأنظر إليها، إنّها إحدى الملاحظات التي كتبتها في شقتي.

النّقل الأفقيّ للجينات.

تستمرُّ الحياة بأيِّ ثمن.

في الثّانية عشرة من العمر، أصابتني الحمّى الأسوأ في كامل حياتي،

لزمتُ الفراشَ على إثرها أسبوعًا كاملًا لم أبرحْه، أخبر الطبيب والديَّ بأنّني مريضة للغاية، وبأنَّ وضعي حرج وخطير، كانت حرارتي 102 فهرنهايت، وعجزتُ عن السّيطرة على نفسي.

إلا أنّ هذه الحمّى أسوأ بكثير، أشعر وكأن قطارًا دهسني، كأنّه جرَّني لبضعة أميال، وأسقطني في خندق عميق.

لا أستطيع التّركيز، ولا التّوقّف عن الارتجاف، والعرق لا يكفّ في الآن نفسه عن التّصبّب.

هناك أشخاص في غرفتي، يدخلونها ويخرجون منها، هل يحزمون أغراضًا ما؟ جاك؟ أهذا جاك؟ شيلي؟

هناك شخصان عند طرف سريري، أسمع عزف بيت على الكمان.

هناك من يساعدني على الذّهاب إلى الحمّام، يمسكون بجبهتي، أتقيأ.

أرى حلول اللّيل، ثمّ الصّباح، ثمّ اللّيل، ثم الصّباح من جديد.

إنَّني عطشى.

أطلبُ الماء، أصرخ، وما من مجيبٍ، أنا وحيدةٌ مجدّدًا، وسط العتمة، أرتجفُ بصورةٍ مرعبةٍ، ويزداد عطشي، أتجاسر على نفسي، وأسيرُ بساقيّ المتعبتيْن نحو الحمّام.

العتمة تملأ المكانَ، ولم أهتدِ إلى مفتاح الضّوء في الحمّام إلّا بعدَ عناءٍ، يضيء المصباح، فأصرخ، دونَ أن يصدرَ عنّي صوتٌ.

ما الّذي يفعله هنا؟ أمامي؟ إنّه يجلس إلى مقعدي، وفي حِضنه لوحة ما، يعمل عليها جادًّا، يكره أن يقاطعه أحدهم في أثناء عمله، لا أصدق أنّه هنا، يبدو عجوزًا للغاية، رأيته يوم وفاته، ولم يبدُ عليه الكِبر بهذا الشّكل، يرفع رأسه عن عمله وينظر إليَّ.

"ماذا؟ ما الّذي تريدينه الآن؟ ما الّذي تريدينه بحقّ الجحيم؟ ألا ترين أنّني أعمل؟ دعيني وشأني! أحتاج الوقت للعمل، هناك عمل كثير ينتظرني".

أتراجع وقد أصابني الدّوار، وأطفئ الضّوء من جديد، أسقط من جديدٍ على السّرير، مرتجفة، وأزحف تحت الأغطية.

الجزء الثالث

"صباح الخير"

أفتح عينيَّ على ألوان مبهمة الشّكل، أحاول بعناءٍ تركيز ناظريَّ. كان جاك يقف إلى جانبي، وكنتُ أشعر بثقلٍ لا يطاق في رأسي، لم أكن قادرةً على تبيّن المكان أو تحديد هويّته، تذكّرتُ بصورةٍ مضطربة ما كان من أمري في ليلةٍ سابقةٍ: الحمّى، جاك في وضعيّته الغريبة، مرتبكًا مهزوز النّفس، وانهيار دموعه، المطبخ، عجزي عن الكلام، صراخي في غير طائلٍ... هل كان حلمًا كلّ ما تراءى لي، وما تناهى إلى سمعي؟ كنتُ مريضةً دون شكٍّ، ولا أستطيع تحديد المدّة الّتي استغرقها مرضي، أهي ليلةٌ واحدةٌ مثلما يصوّر لي اعتقادي؟ أم أنّ الأمرَ استغرق أيّامًا دون أن أشعرَ؟

ولكن ما أذكره على وجه الدّقة، رؤيته في الليلة الماضية، كان هنا، جالسًا على مقعدي، يرسم.

أنظر إلى جاك، الذي بدا مرتاحًا ومنتعشًا، على عكس ما بدا عليه في عتمة المطبخ.

سألتُ بصوتٍ مبحوح وضعيف: "ما الّذي حدث؟".

قال: "أصابكِ المرض، اضطراب في معدتك".

"منذ متى؟".

"منذ عشاء البارحة، يبدو أنّ شيئًا ممّا تناولتِه لم يوافق ذائقتك، لبثتُ هنا طوال اللّيل أساعدكِ، كيف تشعرين الآن؟".

"كنتَ معي هنا؟ ليلة البارحة؟".

أومأ بالإيجاب.

أجلس، أشعر بكبر سنّي ولكن... حسنٌ، أشعر أنّني عدتُ إلى طبيعتي من جديد، واستعدتُ شعوري الإيجابيّ بما يحيط بي، لا يزال السّرير ناعمًا ودافئًا، وجاك يعتني بي.

قلتُ: "كان هذا صعبًا، أشعر أنّني لبثتُ مريضةً لأسبوع".

"للتّسمّم بالغذاء أعراض صعبة، لقد أصابتكِ حُمّى شديدة".

أرتشف بعض الماء من الكأس بجانب السّرير، فأجده باردًا، ينعّم خشونة حلقي.

سألتُ وأنا أرفع يدي إلى رأسي: "هل أصيب الجميع بالمرض؟".

قال: "أجل، الجميع".

"وماذا عنك وشيلي؟".

سألني: "كيف تشعرين الآن؟ هل لديكِ شهيّة لتناول الطّعام؟".

أفكر في طبق البيض، والخبز المحمص، ولكنّ معدتي، تنقبض بغتةً.

قلتُ: "أجل، في الواقع، أنا جائعة".

"هذه إشارة طيّبة".

يناولني جاك جهازًا ناعم الملمس، فينزلق في يدي بسهولة.

همس لي منحنيًا: "أحضرتُ لكِ شيئًا، ولكن لا تخبري الآخرين بذلك".

أنظر إلى الجهاز بين يديَّ.

"ما هذا؟".

قال: "موسيقا، لسماعاتكِ، إنّه آيبود، لم أنسَ رغبتكِ".

قلتُ: "لا أعرف كيفيّة استعماله".

قال: "هاكِ، سأريكِ، إنّه سهل".

يستغرق لحظة في شرح كيفية استخدام الجهاز، فيبدو لي شيئًا يمكنني استخدامه بالفعل.

عندما يلتفت عنّي للمغادرة، أناديه وهو عند الباب.

"لماذا فعلت هذا من أجلي؟".

"لأنكِ تروقينني، يروقني حديثك معي عن شتى الأمور، يروقني انفتاحكِ".

كان على وشك المغادرة.

"جاك، ما الّذي حدث؟ عندما رأيتك، كنت تبكي، هل أنت بخير؟".

"كلّ شيء على ما يرام يا بيني، إنّه يوم جديد، سأحضِّر الفطور متى رغبت نفسك في ذلك".

لا أبرح مكاني بعدَ مغادرته، وأنعم بالسّكينة الّتي كنت أحتاجها حتّى أهدّئ من روعي، يتسرّب دفء الملاءات إلى جسدي فأستلطفها، أتساءلُ عن البارحة، وما انتابني فيها من أحاسيسَ ورؤًى، وتتراءى لي بعيدةً، ما زال برأسي الثّقل نفسه، ولكنّني أتضوّر جوعًا.

وأنا أنهض لارتداء النّعال يلفت نظري طول أظافر قدمي، فأشمئزّ للأمرِ، خفّت آلام ركبتي، وأنا أعمل يدي على مساحتها.

أشعر بضربٍ من الخفّة أسعد له، وأهنأ بتحسّن حالتي، وبتجدّدي، أراقب تسلّل أشعّة الشّمس، وأودّ وأنا أرمق الجدران لو أنّها كانت مثل غرفتي القديمة مزدانةً ببعض الصّور، وبالملصقات واللّوحاتِ.

أشتاق أيضًا إلى ألبوم صوري، لا بد أني امتلكتُ ستة ألبومات أو سبعة، كلها مملوءة بالصور، اعتدتُ إخراجها كلّ حين، وتصفّحها، أحببتُ رؤية تلك الوجوه من الزّمن القديم.

ما الّذي حدث لألبوماتي كلّها؟ إنها ليست هنا، أواجه صعوبة في تذكّر اليوم، أو اليومين، اللّذين سبقا انتقالي، كان حزم الأغراض مهمّة مايك، فهل انتزع كلّ ما عُلّق على الجدران؟ أذكر أنّني أخبرته بحاجتي إلى ألبومات الصّور، ولكن لماذا حزم، بدلًا عنها، لوحاتي؟ ما الذي حدث للأشياء كلّها الّتي لا أفتقدها، ولكنني اعتدتُ استخدامها يوميًّا؟ أدوات المائدة، الآنية الزجاجيّة، الأطباق، سريري، طاولة مطبخي، ومقعدي؟ قضيتُ ساعات عديدة في مقعدي.

أنتبه إلى أنني ما أزال أمسك بالجهاز الصّغير الذي أحضره لي جاك،

أرتدي السّماعات المعلّقة إلى جانبه، وأضغط على زرّ التشغيل، وعلى الفور تمتلئ أذناي بأصوات الأغاني.

أغاني دوك إلينغتون.

أنظر عبر النّافذة إلى الأشجار، أنظر إلى الجدران الفارغة، ثم إلى السّقف، كان مطليًّا بالأبيض كالجدران، وكأنّ حياتي تبدأ من جديد، بياضٌ تامّ يحلُّ محل السنين كلّها التي عشتها.

أخلع نعليَّ، وأبدأ في جرِّ قدميَّ الحافيتين حول الغرفة، فإذا أنا أتحرّك بيسرٍ وبخفّةٍ لم أعهدهما من نفسي منذ سنينٍ.

لا أصدّق ذلك، إنّي أرقص.

بوجهٍ صارمٍ عبوسٍ، ودون أن تنبس ببنت شفةٍ تتكفّل شيلي بتقديم الفطور بدلًا من جاك، إنّها لم تسألني عن صحّتي ولم تُبدِ تعاطفَها مع ما أصابني من وهنٍ في ليلةٍ سابقةٍ.

كنتُ أتضور جوعًا، بدأت في تناول قطعة من الخبز المحمص، دُهنت بالزبدة إلى حوافّها، حدّ اللّمعان، قُدّمت لنا الفاكهة، واللّبن، والبيض المسلوق.

نتناول الطّعام، نتغذى جميعًا بعناية واهتمام، لتلبية هذه الحاجة الإنسانية الأساسيّة.

أرفع عينيَّ عن صحني باتّجاه هيلبرت، أظنه أكبر منّي، ولكني لا أكترث لفارق السّنّ بيننا، هناك طرق أخرى لقياس العمر والخبرة.

سألتُه: "كم مضى على وجودك هنا، في دار أشجار الأرز الستّ؟".

تبدو عيناه مختلفتَينِ هذا الصّباح، لم تكونا مشرقتيْن وحادّتيْن كما البارحة، يرشُّ بعض الملح والفلفل على البيضة في يده.

قلتُ: "هل مرضتَ ليلة البارحة؟ كنتُ مريضة جدًّا."

"أصابكِ المرض؟ ليلة البارحة؟ آسَف لسماع ذلك، آمُل أن تعتادي على ذلك".

"أعتاد على ذلك؟".

قال يقضم من البيضة: "على الأيّام حين تختلط ببعضها، فهذا ما يحدث هنا".

وجدتُ روث وبيت مشغولَيْن بتناول الطّعام، بيت كعادته ساكنٌ ومُنتبه بالكامل إلى طعامه، أمّا روث فشعرتُ بها تنظر إلينا.

همستُ: "أنا مرتاحة هنا، ولكنّني ما زلتُ جديدة، ما زلتُ أعتاد على هذه الحياة".

قال: "نُكرّر هذا، كلّ يوم، فما نفعله هنا لا يتغيّر، إنّنا نعمل".

هناك أمرٌ مّا يتبدّل في داخلي لأثر عبارته.

"لكلٍّ منّا عمله، ولكنّ الأيّام جميعها تتشابه، فالمكان والزّمان هنا مُضلّلان، فكّري في الكسور المتكافئة، أي تلك الّتي يتمايز بسطُ كلّ منها ومقامه عن الأخرى، ولكنّها متساوية في القيمة، فثلاثة أسداس وأربعة أثمان ونصف، كلّها كسور متكافئة".

يلقي بالنّصف الآخر من البيضة في فمه.

قلتُ: "ربّما بوسعنا فعل أمرٍ يُغيّر هذا التّكافؤ، كي لا تختلط علينا الأمور".

قال: "أشكّ في ذلك، أعتقد أنّ الأمور لطالما سارت على هذا النّحو هنا، أعتقد أنَّ هذا بالضّبط ما تُريده".

أقضم من الخبز المحمّص، أمضغ اللّقمة وأبتلعها.

سألته: "هل ستجلس لكي أرسمك؟".

يستغرق الأمر بضع ثوانٍ ليفهم ما أقصده، يمسح فمه بالمنديل، ويبدو عليه الانتباه.

قال: "لا أعتقد أنها ستتساهل مع هذا الأمر".

قلتُ: "ولا أعتقد ذلك أيضًا."

قال يصدر صوتًا بلسانه وهو يفكّر: "حسنٌ، موافق".

جاءني جوابه أشبه بالسّؤال، ولكنّني لا أهتمّ، فقد سمعتُ الموافقة.

كان آخر من جلس لكي أرسمه امرأة من البناية التي عشتُ فيها، لا بدّ أنّه قد مضى على ذلك عقدٌ من الزّمان، لم تكن على معرفة جيّدة بالفنون، ولا رسم الشّخصيات، ولا السّيريالية.

كانت أمًّا عزباء، تعمل نادلة في مقهى يبعد عنّا شارعيْن، لديها الوجه الأكثر إثارة للإعجاب، كان مستديرًا بصورة مثاليَّة، وخطوطه منتظمة، وذات هيئة صافية، أردتها أن ترى وجهها كما أراه أنا، أن ترى الجمال والصّرامة والنّعمة الّتي تسمه والخبرة، لقد تمازجت تلك المعاني كلّها في ملامحها بصورةٍ مذهلة، لم يكن قدرُ تلك اللّوحة مختلفًا عن بقيّة ما بدأته من أعمالٍ، فلم أشعر يومًا بأنّ اللّوحة قد اكتملت، ولهذا السّبب فقد أخفيتها، وتغمّدها النّسيان.

أشعر بالإثارة تنبثق في معدتي، تدغدغني.

أُومئ، وأعود إلى تناول فطوري، متناولة بيضة ثالثة.

تقول شيلي بفظاظة وهي تعيد الأطباق إلى المطبخ: "لقد آن أوان اجتماعنا".

يُطبق الصّمتُ، يتأهّب جمعنا، ونمضي جهة الغرفة المشتركة، أحدّق في هيلبرت فأجد أنّه لا يعيرني اهتمامًا، يركّز بصره بوجه متصلّبٍ، وملامحَ مبهمة إلى الأمام.

يسير كلٌّ منا بمفرده، ونعبر المدخل، فلا نسمع غير خطواتنا، وشيلي تدندن خلفنا، يجد كلٌّ منّا مقعده فيجلس، أجد الجوّ أكثر دفئًا هنا، مقارنة بغرفة الطّعام أو المدخل، أشعر بحرارة الشّمس من النافذة على ذراعي، في صمتٍ مرعبٍ يجلس الجميع، كان الأمرُ غريبًا يبعث على الرّيبة، حتّى إنّني تحسّست أذنيّ، إذ خُيّل لي أنّني أرتدي حاجبَ الصّوتِ، لم أجد من سبيل لأكسر حاجزَ الصّمتِ.

كان الجوّ أكثر عصفًا اليوم، رأيتُ حركة أغصان الشّجر في الخارج، كانت جميلة، لم تحمل أيّ أوراق، بل أغصانًا وأفرعًا عارية، لا بدّ أنها عتيقة للغاية، فقد انتصبت في مكانها قبل بناء هذا المنزل.

وأخيرًا نطقت شيلي: "جاك؟".

كان يقف في الرّدهة صامتًا على غير عادته، حتّى إنّني لم أنتبه لوجوده.

"يمكنكَ الدّخول الآن يا جاك".

أنا الوحيدة التي التفتُّ إلى حيث الباب، يدخل جاك من دون أن يتفوّه بحرف.

قالت: "اقترب أكثر".

فيُطيعها ويقترب، يتجاوزني، ويتّجه إليها، تلتقي أعيننا للحظة، تقف شيلي بطولها الّذي يفوق طوله بضعة إنشات.

بدت لي الفجوة بينهما أعظم ممّا تخيّلتُ يومًا. تتناول كرسيًّا، وتضعه في الوسط تمامًا.

"تفضّل بالجلوس".

يتردّد جاك، بثيابه البيضاء والنظيفة، بالجلوس، ثمّ يفعل وقد بدا عليه التّوتّر، تركّزت عليه الأنظارُ كلّها، في استياءٍ واضحٍ، لم أعرف سببه.

توجّهت إليه شيلي بالقول: "إنّك لا تكاد تشاركنا في شيءٍ من أحاديثنا، ولعلّي لم أمنحك الفرصة لتفعلَ ذلك".

يحدق في الأرض، ويبتلع ريقه.

"لِم لا تشاركنا الحديث بأمرٍ ما؟".

تطول حركته، ولا يجلس ساكنًا، سألها ينظر في عينيْها: "مثل ماذا؟ ما الذي يخطر لكِ؟".

"أوه! لا أدري، أخبرنا مثلًا عمّا كان عملكَ في السابق، قبل أن تنتقل إلى هنا".

ما الّذي فعله ليغضبها؟ لماذا تواجهه أمامنا بهذه الطّريقة؟ أيعقل أنّها رأته في حالته تلك التي رأيته عليها؟ مستاءً خائفًا وتعيسًا، يشرب النبيذ؟ أتحاول أن توضّح أمرًا ما؟

أجابها: "لم أعمل في أيِّ مجال".

"أكنتَ تعيش مع أحدهم؟".

"لا".

لم تَرُقْ لي طريقتها في استجوابه، حدّ الإهانة، وشعرت بالانزعاج إزاء ما يحدث لجاك، وإزاء ما يحدث لنا كلّنا.

"كيف كان بيتك السّابق؟".

"حيث عشتُ؟".

"أجل".

"كان صغيرًا."

"ومريحًا؟".

تكاد روث تتكلّم قبل أن تمسك شيلي بيدها وتقول: "دعي جاك يتحدّث الآن يا روث".

قال: "لا، بل كان مكانًا رديئًا."

تقف شيلي، وتتوجّه نحو النّافذة، تقف في ضوء الشّمس، تنظر خارجًا إلى حيث الغابة.

"هل تُحبّ المكان هنا؟ معنا؟".

"أجل".

"ما الّذي تُحبّه فيه؟".

"يتسنّى لي العمل والعيش هنا، صرتُ جزءًا من المجموعة".

"يتسنّى لك العمل هنا، والحصول على مسكن حقيقيٍّ، إنّها ميزة مهمة، يحتاج الجميع إلى غاية ما، وعملنا يُشبع حاجاتنا".

قال: "إنّي محظوظ لحصولي على هذه الوظيفة".

تلتفت شيلي بابتسامة مشرقة على وجهها، كانت عيناها تلمعان، لم أرَ ابتسامتها عريضة بهذا الشّكل من قبل.

"إنّي في غاية السّرور لقولك، ونحن كذلك محظوظون بك".

يقف جاك، وينطلق خارجًا، من دون النّظر إلى شيلي ولا إلى أيٍّ منّا،

كنتُ في صدمة.

وبمغادرته، تقف روث، وتسأل شيلي: "لا يزال جاك واحدًا منّا، أليس كذلك؟".

أجابتها: "بالتّأكيد واحدٌ منّا، نحتاج جميعًا إلى دفعة بسيطة من حينٍ إلى آخر، هذا كلّ ما في الأمر، لكي نتذكّر أولويّاتنا، وأهمَّ الأشياء في حياتنا".

ما كان ذلك؟ ما الّذي حدث توًّا؟

هل كانت شيلي غاضبة من جاك؟

أكانت تحاول إحراجه؟ وأن توضّح لنا أنّها المسؤولة هنا، والمسيطرة علينا جميعًا، وأنه في حاجة إلى وظيفته، وأنَّ بإمكانها استبداله، وأنَّه من دوننا وهذه الدّار لا يملك شيئًا؟

لا أعرف شيلي، على الإطلاق، أعيش معها، تُساعدني في الاستحمام، وتغسل شعري وتعتني بنا جميعًا، ولكن يستغرقني الأمر وقتًا أطول لأتعرّف إلى شخصٍ ما، وأن أفهم دوافعه ومعتقداته.

أستعيد كلَّ ما قالته لجاك مرارًا في رأسي، أجلس على مقعدي في غرفتي، سريري على يميني، وعندها فقط يهبط الإدراك فجأة عليَّ: هذه ليست غرفتي، بل غرفة شخصٍ آخر، لقد جئتُ مباشرة إليها بعد الاجتماع، دخلتُ وحدي، واستخدمتُ المرحاض، وجلستُ، والآن فقط أدركتُ خطئي.

لا بد أنّها غرفة روث، يا للخطأ الأحمق الذي ارتكبته، كم أنا حمقاء، أتساءل ما قد تظنّه روث لو رأتني هنا في هذا المكان، أجلس على مقعدها، لن يروقها ذلك على الإطلاق، بل ستنزعج، تكاد الغرفة أن

تكون مطابقة لغرفتي، عدا عن الفرق الواضح المتمثل في وجود قاموس "إنجليزي – فرنسيّ" على مكتبها، حيث أحتفظ بعلبة الفراشي خاصّتي.

أعلم أنّه لا يجدر بي فعل ذلك، ولكنّني لا أقاوم نفسي، سأفعل ذلك سريعًا، أجلس على سريرها فأجده ناعمًا ومتينًا كسريري، لا يمكنني تبيان فارقٍ بينهما، أميل إلى الخلف وإلى جانبي، وأشمّ اللّحاف.

أقف وأقترب من خزانتها، وبدلًا من أن أجد على ظهرها صورةً في إطار، ومنحوتة خزفيّة، أجد زجاجة صغيرة، ألتقطها، وأزيل غطاءها وأشمّها، أتعرف إلى الرّائحة على الفور، إنّه واحدٌ من بين عطوري المفضّلة، سبقَ لي أن امتلكتُ واحدًا من جنسه مرّةً واحدةً لا غيرَ، ولكنّه ظلّ معي سنينَ طويلةً، فقد حرصت على استعماله في مناسباتٍ بعينها.

لم يكن يحبّ الرّائحةَ، هذا ما أذكره، وقد أحجمت عن استعمال ذلك العطر في حضوره، كنت حريصةً على أن أتفادى تعليقاته، وردود فعله المتشنّجة، كنت أنقّط منه كلّما لوتُ بنفسي، في الشّقّة أو خارجها، وكان ذلك يُمتعني .

أشمُّ الرائحة ثانية، لم تتغير عبر السّنين، هذا أمر غريب.

وعندما أستنشق أكثر، أتذكر أمرًا، أتذكّر حديثنا عن هذا المكان، دار أشجار الأرز الستّ، لقد ناقشنا الأمر بالفعل. وتحدّثنا عن جمال المنزل، وجمال حياة المرء جوار غابة كبيرة، وعن رغبتي بالعيش في مكانٍ قريب من الغابة، لقد نسيتُ هذا كلّه تمامًا، وتذكرته الآن، لقد أردتُ العيش هنا.

أشمُّ الرّائحة من جديد.

أصغي السمع لأتأكّد من أنّ أحدًا لا يعبر الرّدهة، أضع القليل منه على إصبعي، خلف أذني، وعلى رسغي، أفرك رسغيّ ببعضهما، لا أستطيع منع نفسي من ذلك، أعيد تغطية الزّجاجة، وأضعها في مكانها، وأخرج باحثةً عن هيلبرت.

قال هيلبرت: "هل تعلمين أنّ حرف "n" يرمز إلى عددٍ غير مُحدّد؟".

قلتُ: "لا".

"إنّه مجرد رمز بسيط، مجرّد حرف، ولكنّه مُهم للغاية".

قلتُ: "تملك منظورًا إلى الأشياء مختلفًا تمامًا عن منظوري".

قال: "وهذا ما أعتقده عنكِ".

"هناك أمور تفهمها أنت، وتغيب عن فهمي".

قال: "والعكس بالعكس، فبعد حديثنا، ينشغل ذهني بالتّفكير في الأشياء الّتي أخبرتني بها".

أشعر بدفءٍ ما ينتشر في صدري.

"كم يومًا مضى على تعرّفنا إلى بعضنا بعضًا؟".

"لستُ أكيدًا، هل يُهمّكِ عدد الأيّام؟".

قلتُ: "كنتُ أفكر في أن نجرّب شيئًا."

سألني: "متى؟".

قلتُ: "اليوم، في هذه اللّحظة".

"الآن؟".

"أجل".

"ما الّذي تريدين تجربته؟".

"أريد أن يظلّ هذا سرًّا بيننا".

قال: "حسنٌ يا بيني".

أمُدُّ يدي ،وأُمسك بيده الطّويلة والثقيلة:
"تعالَ معي".

نعبر الرّدهة بنعالِنا، يدًا بيد، حتّى نصل غرفتي، كان المكان هادئًا، أطلب منه الجلوس على المقعد بينما أحضِّر عُدّة الرّسم، رأيته يلمس كُمَّ معطفه متململًا، قلتُ:

"يمكنك أن تسترخي في مكانك".

قال: "لم أفعل هذا من قبل".

"هذا جيّد".

في الأثناء أسترق النّظر إليه، إلى جلسته، والرّجفة البسيطة في يديه، وإنعامه النّظر في زوايا الغرفة، لا يزال الفضول يتملّكه في هذا العمر، لا يزال ذهنه نشطًا.

"هل تزوّجتَ من قبل، يا هيلبرت؟ قبل أن تنزل في هذه الدّار؟".

"كنتُ متزوجًا، وأنا الآن أرمل".

قلتُ: "آسَف لسماع ذلك".

قال: "عشنا معًا مدَّةً طويلة".

ثبت في مكانه، فبدأت الرّسم.

"كيف كانت تبدو؟".

قال: "كانت ذكيّة، ذات فكر منطقيّ، هذا أوّل مّا أحببته فيها، هل تزوجتِ أنتِ؟".

"لا".

"هل درستِ هذا الاختصاص؟".

"الرّسم؟".

"أجل".

"لا، ليس بصورةٍ أكاديميّة، درسته بنفسي، قرأت الكتب، وجرّبتُ ما يتعلق به، وزرتُ المعارض، لا أحبّ أن أصف ذلك بـ"التّعلم الذاتي" لأن هناك أشياء كثيرة أثرت عليّ".

"لعلَّ هذا كان أفضل، لقد درستُ لزمانٍ طويل، لسنين عديدة، استغرق ذلك سنوات شبابي الأولى، كانت دراسة رسميّة أكاديميّة، ولم أتخيّل يومًا أنّني سأستمتع بالتعليم، ولكنّني بالفعل استمتعتُ به".

"درَّست الرّياضيات في الجامعة؟".

"أجل، لقد شغلني عملي، وملأ وقتي، وكان عليَّ ضغط النّشر، شعرتُ بالضّغط يخفُّ بتقدمي في العمر، ولكنّني واصلتُ العمل، لقد ملأت العديد من أوراق الرّسم البياني خلال سنواتٍ عديدة".

"وكأنك عدتَ إلى ما دفعك لبدء هذه الرّحلة في المقام الأوّل".

"كانت أمّي من دفعتني إلى البدء أولًا، لقد علّمتني أساسيّات علم الحساب على طاولة المطبخ".

تخيّلتُه شابًّا في مقتبل عمره، بل رأيته كذلك في ذهني، جالسًا ينحني على دُرجه، وبيده قلم الرّصاص.

"هذا جميل، وهذا ما دفعك إلى المتابعة في هذا المجال؟".

قال: "أفترض ذلك، فلم أتوقف بعد ذلك، كانت لديّ دائمًا أشياءُ كثيرة لأتعلّمها".

"أجل، أشعر بهذا أيضًا، ولكن لدوافع مختلفة، لطالما بدا لي الرّسم مثل ملعبٍ يضمُّ مختلف أنواع الحركات، وليس حركاتي الخاصّة فقط، تعلّق الأمر بالحدود، أي الحدود الملموسة، وكأن الفنّ الّذي أحببته وجدني بنفسه، بدلًا من أن أجده أنا بنفسي".

قال: "أجل، أجل، أفهمكِ، أفهم ما ترمين إليه".

كان ثابتًا في مكانه بطريقة مذهلة، مسندًا ظهره إلى المقعد، بكتفيْن مرفوعيْن.

"أكثر ما أندم عليه في عدم إظهار عملي إلى الآخرين، تفويت الفرصة على المُشاهد في أن يعيش تجرِبته الخاصة في النظر إلى العمل، ولا يعني ذلك فهمه، بل أن يملك استجابة ما ،أيَّ استجابة".

"إذًا، أنتِ لم تُظهري عملكِ يومًا لأحد؟ لم تحظي بمعرِضٍ ما؟".

قلتُ: "لا، لم أحظَ بذلك".

يعدِّل جلسته متردّدًا، ويسألني إذا كان بوسعه ذلك، فأومئ له، قلتُ: "ليس عليك أن تظلّ على جلسة واحدة، اجلس كما يحلو لك".

يغرق في كرسيّه ،ويَدَعُ كتفيه يهبطان بخفّة، ويغيّر جلسته.

"هل تعرفين فرضيّة ريمان؟".

قلتُ: "لا، ما هي؟".

"يتوجّب علينا تبعًا لها البَدء بالأعداد الأوّلية، والعودة إلى أعداد إقليدس، الذي كان أول من أثبت لانهائيّة الأعداد الأوليّة، لانهائيّتها! لم تُثبَت هذه الفرضيّة بعدُ."...

يتوقف عن الحديث، ويقطع فكرته.

"هذا طريف، إنّي أحاول شرحها بالصّورة المناسبة."

يصمت للحظة مفكّرًا.

"اعتدتُ حفظ هذا كلّه عن ظهر قلب، ومعرفة شرحه، أخشى أنه يغيب عنّي الآن، أعتذر".

ويهبط بناظريْه إلى الأسفل، وقد تورَّد وجهه.

"لا بأس، ظننتُ يومًا أنّني فهمتُ الغاية من الرّسم فهمًا تامًّا،

ولكنّني بتقدّمي في السّنّ بدأت أفكّر في أنَّ الفن يتعلّق باختلاف منظور الرؤية، لم يتملّكني في يومٍ شيءٌ بكلّيته، بل كنتُ أفكّر دائمًا في جزئيّة ما، فتات فكرة، جزء من لحظة ما، تعبيرٍ فقد نصفه، جانب واحد من جوانب شخصٍ ما، لم يتشكّل لديّ منظور واحد متكامل؛ لأنّني اعتقدتُ أنّه يمكن أن يكون منظوري الخاصّ للشّيء، وليس منظور شخص آخر".

"أتقصدينني في هذه اللّحظة؟".

"أجل، أقصدك في هذه اللّحظة".

يبتسم، ويُخلّل أصابعه في شعره الأشيب.

قال: "كلّ شيء في تغيُّر مستمر."

قلتُ: "حتّى في الأيام الأخيرة القليلة أشعر وكأنّني تغيّرتُ، أعرف ذلك، وأشعر به في كلّ جزءٍ منّي، إنّي آكل أكثر، وأنام أفضل، لقد غيَّرني الاجتماع بكم كذلك".

"هناك من يعتني بنا هنا، لذلك بإمكاننا ممارسة حياتنا فقط."

أرسم في هدوء وصمتٍ للحظة.

قلتُ: "شعرتُ براحة عظيمة عندما وصلتُ إلى هنا، ولكن هناك ما يقلقني".

"في هذا المكان؟".

"أجل، هل تحدثتْ إلى جاك بهذه الطّريقة من قبل؟".

"شيلي؟".

"أجل، لقد أهانته أمامنا، كان ذلك غريبًا."

قال حائرًا: "أنا.. آسِف، لا أذكر أنّها أقدمت على أمرٍ مشابه من قبل".

"لا بأس، لا يُهمّ".

"لا بدّ أنّ ذهني لم يعد نشطًا وحادًّا كما اعتدتُ عليه، يبدو أن ذاكرتي تنشط ،وتَمهُد باستمرار".

قلتُ: "أجل، وذاكرتي كذلك، هناك بعض الذّكريات الّتي تتلاشى ببساطة".

"أعتقد أنّ الطّريقة الّتي نعيش بها هنا تجعل من اللّحظة الحاضرة الأهمّ على الإطلاق، كلّ لحظة هي الأهم حتّى تحُلَّ اللحظة التي تليها".

سألته: "هل يخيفك ذلك؟".

"ماذا؟".

"العيش في اللحظة الحاضرة، وانعدام قدرتك على التّذكّر".

قال: "أجل، يخيفني ذلك".

قلتُ: "ويخيفني أيضًا."

أتوقف عن العمل عندما بدأ هيلبرت يسعل.

قال: "ولكن، ربما لا يكون هذا سيّئًا، أي الخوف".

قلتُ: "إنّي أقدِّر هذا بحقٍّ، أي وجودك بيننا".

"سررتُ لطلبكِ مني الجلوس، أشعر بالتّوتر في أثناء ذلك، ولكنّني مبتهج لذلك".

"لم أتحدث عن ذاكرتي لأحدٍ غيرك".

قال مبتسمًا: "أو هذا ما تذكرينه، على الأقلّ".

لم أتمكن من التّدقيق في تفاصيله بعناية، وجهِه، ويديه، وعينيه، وتلك الغمازة التي استقرّت على ذقنه.

قلتُ: "علينا الاستمرار في مساعدة بعضنا قدرَ الإمكان".

قال: "والاطمئنان على بعضنا".

قلتُ: "فكلّما تحدّثنا معًا."...

أضاف يُكمل عبارتي: "فهمنا أكثر".

سمعنا صوت باب يُغلق نهاية الرّدهة، أتوقّف عن العمل، وأنتظر سماع خطواتٍ ما، ولكنني لا أسمع شيئًا، بل عمَّ الصمت المكان.

قلتُ: "إنّ حديثنا إلى بعضنا بعضًا، حتى لو لم نذهب إلى مكانٍ ما، يُعد بحد ذاته تمرّدًا."

قال: "ثورتنا الخاصّة".

وضحك كلانا.

وبعد مرور الوقت، توقفتُ عن الرّسم، ووضعتُ الفرشاة جانبًا.

"كنتُ أفكّر لو."...

"ماذا؟".

"لا، هذا سخيف".

يمنحني نظرة تدفعني للمتابعة.

لا أعرف كم مضى على وقوفه هناك بتلك الهيئة، بكتفين مرفوعين، يداه إلى جانبيه، كانت عيناه إمّا مثبتتين على الأرض، أو تنظران عبر النّافذة، في بعض اللحظات بدا غارقًا في فكره، وفي لحظات أخرى كان يُظهر ابتسامة من دون أدنى سببٍ، لقد أدهشني بقدرته على الوقوف لهذا الوقت الطّويل، لا بدّ أنّ ساعة مضت على ذلك، أو أكثر.

وفي لحظة ما، قال لي: "7 ÷ 2\3 = 7، 2\3 X عندما تريدين القسمة على كسرٍ ما، يمكنكِ تحويل القسمة إلى ضرب، وقلب الكسر".

أسأله إن كان متعبًا، أو يشعر بالبرد، أو يريد استراحة ما، ولكنّه يجيبني بالرّفض في كلّ مرة، ويخبرني بأنّ عليَّ مواصلة عملي، فأواصل، وأتابع الرّسم، وأنسى نفسي فيه، كنتُ أضيف التّفاصيل إلى ذقنه وشفتيْه حتّى شعرتُ بأمرٍ ما في الغرفة، لم ألحظْه من قبل، ولكنني شعرتُ به يقينًا: هناك أحدٌ ما في الغرفة معنا.

حضورٌ آخر.

قلتُ: "علينا الاستراحة".

أضع معطفي الصّوفيّ على كتفيَّ، وأساعد هيلبرت في ارتداء قميصه.

ألاحظ شيئًا على ظهر رقبته، نتوءًا ما: "ما هذا؟".

أمدُّ يدي فوق كتفه للمسه بإصبعي، ما هذا؟ شامة؟ بثرة؟ تبدو لي نموًّا غريبًا، وكأنها كتلة من الفِطر ضئيل الحجم، يجفل عندما ألمسها.

تدخل شيلي من دون طرق الباب.

سألتْ هيلبرت: "ما الّذي تفعله هنا؟" ثمّ تابعتْ:"كنتُ أبحث عنه، إنّه وقت قيلولته".

"بهذه السرعة؟ كم السّاعة الآن؟".

تتجاهلني.

"هيّا يا هيلبرت، لنذهب"

قلتُ: "ولكن هناك علامات على رقبته، هناك نتوءات".

يوقفها ذلك عمّا تفعله، تسألني: "علامات؟".

"أجل، تبدو متقرحة".

يرفع هيلبرت يده، ويلمس تلك البقعة على رقبته.

"هذا يكفي يا بيني، لا تثيري استياء هيلبرت".

"أنا لا أثير استياءه".

"بلى تفعلين، لديك مخيّلة مبالغ فيها، وهي مفيدة لعملكِ، ولكنّني لا أريد أن يتملّككِ هذا الخيال".

ينحني هيلبرت نحوي، ويتحدّث همسًا كي لا تسمعه شيلي: "أريدكِ أن ترسمي تلك العلامات عليَّ، إن كان هذا ما رأيتِه، ارسمي ما ترين".

قالت شيلي ترشده إلى الخارج: "هيّا".

وعندما غادرا الغرفة، أدركتُ أنّني كنتُ أستمع إلى بيت يعزف على كمانه.

أعتزلُ الجميعَ، فلا أحدَ هنا لأبادله الأحاديث، أو ألمسَه، أو أرسمه، أدلفُ الحمّامَ، وأرشّ المياه السّاخنةَ على أجزاء من جسدي، وأتساءلُ في الأثناء، ما الّذي رأيته توًّا على جلد هيلبرت؟ إنّني لم ألحظ وجودَ تلك البقعة وأنا أرسم، هل تهيّأ لي الأمرُ، أهو مجرّد ظلّ لشيءٍ ما؟

.

لا يمكننا أن نثق بحواسنا على الدّوام.

أطوّفُ بالمكان، وأركّز بصري على جدران غرفتي، وعلى ذراعيّ ويديّ، وأشعر برغبةٍ عظيمةٍ في أنْ أندسّ تحت الملاءات والأغطية، وأن أغلّق الباب، بيدَ أنّني أكتشف أنّه ليس للباب قفلٌ، ولا أقفال للأبواب كلّها في غرفتي، أتسمّر أمام الغرفة، فأرى ضوء النهار يزداد خفوتًا.

أتذكّر أنّني منذ حلولي بالمكان، لم أتجوّل في الخارج مطلقًا، وبي رغبةٌ في أن أستنشقَ الهواء المنعش، وأن تمرّ نسائمه على وجهي.

مرّ زمنٌ طويلٌ ونحن هنا، نتنفّس الهواء ذاتَه، وأجدني في أمسّ الحاجة إلى أن أخرجَ، مثلما تعوّدتُ، كنتُ أروّح عن النّفس العليلة في الحديقة، حيث أسيرُ وأجلسُ، وأنتشي؛ فالهواء المنعش ضروري للبشر والحيوان والنبات والشجر.

أتوجه إلى مكتبي وأقف إلى جانب طاولته، أضيء المصباح ثمّ أطفئه، ثم أضيئه ثم أطفئه، ثم أكرر ذلك ثالثة، يعجبني صوت المفتاح، تحدّق بي لوحة هيلبرت غير المكتملة.

أجلس على سريري وسط الهدوء، أسمع طنينًا خفيفًا، ربّما لبعوضة

أو نحلة، أميل برأسي قليلًا محاولة الإصغاء، بالكاد أميّز الصّوت عن الصّمت.

أنهض من جديد، وأتّجه إلى المكتب، وكلّما اقتربت من مصدر الصّوت ازداد علوًّا، صرت على مقربةٍ منه، يعلوني مصباح، شبيهٌ بذلك الّذي يتوسّط سقفَ غرفتي القديمة، خشيتُ بادئ الأمر أن يكون مصيري السّقوطَ، ولكنّني لم أسقط هذه المرّةَ، استطعتُ بعناءٍ أن أقفَ على المقعد، وبدَت لي الغرفة أصغر من حجمها.

أستند إلى الجدار، وأقف على أطراف أصابعي، وأتيقّن حينَها من أنّ الطّنين صادرٌ عن المصباحِ.

كأنّه أشبه ما يكون بخليّة نحلٍ. أصغيتُ منتشيةً، وتذكّرت قول أحدهم، نحل العسل الصغير، والذي عاش طويلًا... يُعدّ ذكيًّا كفاية لحلِّ المسائل الحسابيّة.

مَن الذي قال ذلك؟ من أخبرني بهذا؟ متى سمعتُ بذلك؟ أفتح عينَيَّ.

أقف على مكتبي، أنظر حولي في الغرفة، إنّي وحيدة، وما زال بإمكاني سماع الطّنين، ولكنه لم يعد مبهمًا، بل مألوفًا.

أصوات أناس يتحدثون في الآن ذاته، أصوات متعالية في آن، ولا يتّضح لي أحدها، أحاول يائسة فَهم ما تقوله.

أغلق عينيَّ.

تتراءى لي وجوهنا جميعًا، بيت وروث وهيلبرت، آخذةً في الاقتراب، الشّفاه، الأسنان تقضم الطّعام، تمضغه، وتبتلعه. بيت بكمانه، روث تصرِّف أفعال الفرنسيّة، وهيلبرت ينحني فوق ورقة الرّسم البيانيّ، بقلم رصاصٍ في يده.

بيت وروث وهيلبرت، شاخوا جميعًا، وتغيّرت أشكالهم، صارت منفّرةً، وأضحى مظهرهم غريبًا ومقرفًا، بل مهينًا، كنّا جميعنا نسير في دائرةٍ ليحمي بعضنا بعضًا .

حلّت العتمة، وخيّمت على الخارج، لم أكن أعرف بالتّحديد مقدار ما قضيته من الزّمن على مكتبي واقفةً، ولكنّ ألمًا ما انفكّ يتفاقم على مستوى قدميّ، تمتدّ يدي إلى المصباح وألمسه برأس سبّابتي، يا للهول! لقد كدت حقًّا أن أسقطَ، وأَحرَق المصباح إصبعي، لأرفع عقيرتي بالصّياحِ، لا بدّ أنّ جاك سمع صوت صرختي، فأسرع إلى غرفتي.

"ما الخطب يا بيني؟ هل أنتِ بخير؟".

أنظر إليه، يريد مساعدتي، ولكنّني لا أتمكّن من إخباره بحقيقة ما حدث، فقد يغضب منّي، ويخبر شيلي بأنّني كنتُ أقف على مكتبي.

قلتُ: "آذيتُ إصبعي".

"أوه! لا، دعيني أرَه، ماذا حدث؟".

"أنا... أطبقتُ عليه باب غرفتي".

ينظر إلى إصبعي، ويرى احمراره، ثم ينظر إليَّ مباشرة.

"هل ما زال يؤلمكِ؟".

"لا بأس، أنا بخير".

"أكان باب غرفتكِ الذي أطبقته عليه؟".

أكذب: "أجل".

ينظر إلي، وكأنه يكتشف الكذبة، إنّها المرة الأولى التي أكذب بها عليه.

قلتُ: "ليست هناك أقفال على بابي".

"ماذا؟".

"لِم لا يمكنني إقفال بابي؟".

قال: "ألا تذكرين؟ لقد شرحنا ذلك من قبل، تفضّلي، اجلسي هنا".

يساعدني في الجلوس على مقعد مكتبي.

"لاحظتُ ذلك اليوم فقط، قبل إيذاء إصبعي".

قال جاك: "أزيلت الأقفال في تجديد المنزل".

لا يجدر بمصابيح الإضاءة أن تصدر طنينًا كهذا، أو أن تكون بهذه السّخونة، ويجب على الأبواب أن تحمل الأقفال.

قلتُ: "يحتاج الأفراد إلى خصوصيّتهم".

"يحتاج الأفراد هنا إلى المساعدة، لا تُحبّ فكرة الأقفال، ليس في هذا المكان".

"لماذا؟".

يلقي جاك نظرة إلى الرّدهة خلفه، ثم يعود إليَّ قائلًا بحدة: "لأسباب عديدة يا بيني، يمكن أن تشكل الأقفال خطرًا في مكان كهذا".

"في مكانٍ كهذا؟".

"أي حيث للنزلاء صعوباتهم الخاصّة، حيث تكون الذّاكرة مضطربة".

قلتُ: "ذاكرتي جيّدة".

يفرك بيديه جبينه، ثم عينيه.

"هناك ارتباك يعلو هذا المكان، لذلك تُعدّ الأقفال فكرة سيّئة".

"ولكن حتى أبواب الحمامات لا تملك أقفالًا.!"

"لن يزعجكِ أحدٌ عند دخولك الحمّام".

"وكيف أعرف ذلك؟".

يقترب منّي جاك.

"هل نسيتِ أنّكِ سقطتِ عندما وقفتِ أعلى مكتبكِ؟".

"مكتبي؟ سقطتُ من على الكرسي، في شقتي، في مطبخ شقّتي".

ألامس قشرةَ الجرح، بصورةٍ عفويّةٍ، فلا أجد لها أثرًا، حتّى إنّني لا أكاد أصدّق، فالبارحة فقط كانت القشرةُ بعدُ في مكانها.

"هل هناك أمرٌ يغيب عنّي يا جاك؟".

"ما الّذي تقصدينه؟".

"بشأن هذا المكان، هذه الدار".

يبتسم، ويضع يدًا على كتفي.

"إنكِ تتأقلمين معنا بصورةٍ جيّدة."

"إني أشير إلى شعورٍ يتنامى في داخلي، هناك خطب ما في هذه الدّار، وفي غرفتي".

"لا أعرف ما ترمين إليه".

"هل تراقبني؟".

يدور جاك بعينيه، ويهزّ رأسه ويقول: "بيني، علينا معرفة كلّ ما يدور في هذا المكان، لنحرص على أمانكم جميعًا."

أسمع الطّنين الخافت من جديد، مصدره من الأعلى، أحاول النّظر إلى المصباح في الأعلى من دون لفت انتباهه، لا أريده أن يعرف إلامَ أنظر.

"إذًا، ليس هناك ما أجهله، بشأن غرفتي؟ لا أشعر بالرّاحة، بل وكأنّ شيئًا ما... هنا معي، وهذا يقلقني".

وفي نفسي، في داخلي، لا أقول ذلك، ولكنّ الأمر أشبه بشيء ما

يتوسع، ينمو، يصلنا ببعضنا، إلى الأبد.

سألته: "لماذا هناك أربعة منا فقط في هذا المكان؟ أربعة نزلاء فقط؟."!

0.1666666666

"لأنّنا دار صغيرة، من الجيّد أن تكوني فضوليّة يا بيني، ولكنّنا لا نريد للفضول أن يتحوّل إلى جنون ارتياب".

"لستُ مصابة بجنون الارتياب!".

"ألم تشعري أنّ أحدًا كان يراقبكِ في شقّتكِ كذلك؟".

أفكّر في أيامي التي عشتها في الشّقة، وفي ذلك الرّجل الّذي وقف في الشّارع، محدّقًا بي، في تلك الأصوات القادمة من الشّقة المجاورة، وفي الرّجل الذي جاء يصلح منافذي، في مايك الّذي يطمئن عليّ، يحزم أغراضي، ويحملني إلى هنا.

قلتُ: "كان هناك أحدهم في الشّارع".

ينحني جاك نحوي.

"أتقصدين أنّهم كانوا يراقبونك؟ دون أن يتحدّثوا بشيء، أو يحاولوا الاقتراب منكِ أو إيذاءكِ؟".

"لم يتحدّثوا إليَّ على الإطلاق، لا، ولكنّني أعتقد أنّهم كانوا يعرفون عنّي كلّ شيءٍ، لعلّها هي... هي بعينها".

كانت تُطبّق عليّ رقابتَها، وترسلُ العيونَ لتترصّدني، لا أشكّ في أنّني كنت هدفًا من أهدافها، فريسةً أخرى لمخطّطاتها، أحسنت انتقائي، وها أنا هنا أخضع لما سطّرته من غاياتٍ، تتحكّم بأيّامنا وأحلامنا، بزمن استيقاظنا، وساعة نومنا، هنا في هذه العزلة الصّاخبة، حيث لا يزورني أحد، في قطيعةٍ تامّةٍ عن العالم.

قال: "أعلم أنّكِ عشتِ أيّامًا صعبة قبل وصولكِ إلى هنا، ولكنني أريدكِ أن تتذكّري بأنّ أذهاننا يمكن أن تُضلّلنا، تضمّكم هذه الدّار العتيقة لإبقائكم آمنين ومرتاحين، هذا كلّ ما في الأمر".

قلتُ: "لعلّي لا أذكر كلّ شيء، ولكنّ ذهني في حالة جيّدة".

أشعر بتوتّره، يصمتُ هنيهةً، ويتنهّد محبطًا، ثمّ يضيف:

"بيني، لقد تعلمتُ درسًا في أثناء عملي هنا، وهو أنّنا قد لا نكون واعين بالتغيّر عند حدوثه، فأغلب التغيرات تحدث بالتّدريج، وليس بين ليلة وضحاها، ليس هناك ما يجب أن تقلقي بشأنه".

يلتفت عنّي، يريد المغادرة.

قلتُ: "عندما كنتُ في سنٍّ أصغر..." فأوقفته عبارتي.

"لطالما اعتقدتُ أنّني سأرسم أكثر".

وقف عند الباب مديرًا ظهره لي، ومنصتًا.

"اعتقدتُ من دون شك أنني سأتغلب على مخاوفي، وسيتمكّن النّاس من رؤية لوحاتي، فتؤثّرَ فيهم، وتولّد في أنفسهم ذلك الاضطراب، وذلك التّساؤلَ".

لا يلتفت إليَّ، ولا يتحرّك.

قلتُ: "إنّي أسمع أصواتًا."

مكتبة
t.me/soramnqraa

التفت نحوي عندئذٍ.

"لهذا منحتك السّماعات".

"ولكن لماذا أسمع أصواتًا لم أسمعها من قبل؟".

"لأنكِ كنتِ بمفردكِ من قبل".

سألته: "والآن؟".

"والآن نحن نعيش معًا، ولهذا فإنّ السّماعات ستساعدكِ، هذا ما

صُمّمت لأجله، ستتمكنين من التركيز على الرسم قدر ما تشائين من الوقت".

"هل ستمنع السّماعات عني كذلك ما أشعر به؟".

"ستساعدك في منع الأصوات التي تسمعينها، إنّها دار قديمة بجدرانٍ غير سميكة، لقد استغرقكِ الأمر طويلًا يا بيني لتعتادي على الأرضيّات التي تصدر الصّرير".

طويلًا؟ لقد وصلتُ توًّا إلى هذا المكان.

قال: "إن احتجتني فيكفي أن تناديني".

يجب أن أصدق جاك، وأن أثق به فلقد كان طيّبًا معي، وأنا أروقه.

أضع السّمّاعات دون موسيقا، فيحلّ الصّمت المطبق، وينتابني الإحساس ذاته بأنّني مغمورةٌ بالماء تمامًا، أجول في غرفتي فلا أسمع شيئًا يذكر، أتناول فرشاتي، وأتظاهر باستكمال العملِ على لوحة هيلبرت، أواجهني في المرآة، أتفحّص هيئتي، وأبدو لي وأنا أقف منتصبةً شبيهةً إلى حدّ بعيدٍ بروث.

أقول بلكنتي الفرنسية السيئة: "بونجور".

يبدو لي أنّني قد فقدتُ بعض الباوندات، ولا أكاد أصدّق بالنّظر إلى ما آكله بنهمٍ هنا، وبغضّ النّظر عمّا يساورني من أفكارٍ وهواجس، فأنا هنا أتمتّع بموفور الصّحّة والعناية، بيد أنّ لون عينيّ أزعجني وأنا أتفحّصهما، إنّهما ضبابيّتان، قاتمتان، فيهما شيءٌ من الرّقّة والوهن، شبيهتان بعيني بيت.

ولا ضيرَ، فلن يلحظ ذلك أحدٌ، غيري.

يومٌ آخرُ، وإفطارٌ آخر، تنتصب روث كعادتها لتتحدّث في كلّ شيءٍ، حتّى إنّها تجمع في الوقت نفسه بين أكثر من أمرٍ، وقد صارت مألوفةً عندي، ولم أعد أستغرب ما يصدر عنها، من أقوالٍ ومن حركاتٍ، حضرَ هيلبرت لأرسمه، في وقتٍ ملائمٍ، وجلس قريبًا من النّافذة، ورغم أنّه قد بدا متعبًا، فإنّ وسامتَه لم تفارقه، بل زادها انعكاس الشّمس هيبةً، أصبحَ قليل الكلامِ في الفترة الأخيرة، رغمَ أنّ

شهيّته للطّعام لم تنقص، أشعر إزاءَه ببعض القلق.

تضحك روث على طرفتها، يهتز بطنها الكبير، وتُصدر جلبة.

يمضي اليوم في طرفة عين، ننام، نحظى باجتماعاتنا، ننعم بالقيلولة، ولنا متّسعٌ من الوقتِ لنعملَ فيه، يمضي اليوم بمختلف أقسامه ومراحله، ولا أكادُ أنتبه إلى مروره إلّا بنهايته، لا أكادُ أشعر بمضيّه وأنا في خضمّه، إنّنا نعيش اللّحظةَ، وننشغل بأمورٍ شتّى، قضيت اليومَ وقتًا أكثر في الرّسم، وقد حظيتُ بالتركيز الكافي، وانغمستُ في اللوحة، أحاول أن أنظر إلى هيلبرت مباشرة، ولكنّه يركّز ناظريه على الطّعام.

يقطعه ويقضمه ويمضغه ويبتلعه.

أسأله: "كيف تجده يا هيلبرت؟".

يومئ، ويصدر صوتًا معبّرًا عن الرّضا التّام، ولا يتوقّف عن تناول طعامه، لا يخوض معي في الحديث كما أتوقع منه ذلك وأريد، إننا جميعًا مأخوذون بالطّعام المقدّم لنا، نلتهمه بتوحّش، وليست غايتنا الاستمتاع به فحسب، وإنّما ما نناله من غذاء يلبّي احتياجاتنا، أنحتاج حقًّا أن نتناول هذه الكميات الكبيرة منه؟ أهبط بنظري على طبقي وأدرك أنّني، كذلك، أنهيتُ نصفه، أغرس شوكتي في قطعة من الجزر، لا أزال جائعة، ولكنّني لا أضع القطعة في فمي، بل أتظاهر بذلك، أحرص على ألّا يراني جاك، وألقي بالقطعة في منديلي وأنا أتظاهر بالمضغ والابتلاع، لا ينتبه إليَّ أحد، أقوم بذلك ثانية، بقطعة أخرى من الجزر.

ثمّ أرفع نظري لأرى روث ترمقني، وهي لا تكفّ عن الحديث.

لا بدّ أنّها رأت ما فعلتُه، ولكنّها لا تقول شيئًا، بل تعود إلى طعامها، وقبل أن تتناول لقمة أخرى، تبدأ بالضّحك، تصدر الضّحكة منها

خافتة في البداية، مكتومة، ولكنّها تتابع الضّحك، ويعلو صوتها.

قال هيلبرت: "توقّفي عن ذلك رجاءً، لا يمكننا تناول الطّعام، واحتمال سلوككِ هذا".

يضع الشّوكة والسّكين، ويرفض متابعة طعامه حتّى تتوقّف روث.

يبدو لي هيلبرت أكثر تقدّمًا في السّنّ، وأكثر هشاشة، وكأنّه شاخ فجأة خلال ليلةٍ واحدةٍ.

قلتُ له: "تبدو متعبًا، أظنّ أنّك في حاجة إلى الرّاحة".

ولكنّني لا أعتقد أنّه سمعني.

لم تكفّ روث عن الضّحك، بالوتيرة نفسِها.

قلتُ لها: "هذا ليس مضحكًا."

يتقدّم جاك لتهدئة هيلبرت، وتظهر شيلي فجأةً من المطبخ، توجّه كلامها بصرامةٍ لروث.

تقول لها: "هذا يكفي يا روث".

ترفع روث يدًا إلى فمها، ولكنّها تبدأ في الضّحك من جديد، بصوتٍ أكثر صخبًا.

تلتفت شيلي إليَّ قائلة: "هل انتهيتِ يا بيني؟".

"أجل، انتهيتُ".

يبدأ جاك في رفع بعض الأطباق.

تقول روث: "ولكنّها لم نتناوله جميعه، فهناك قطعتان من الجزر".

أشعر بالرّجفة تنتابني.

تُخرج لي روث لسانها.

تقول شيلي: "دعي بيني وشأنها يا روث، جاك، هلّا ساعدت روث في العودة إلى غرفتها؟".

أحدّق إلى مكان طبقي على الطّاولة، يساعد جاك روث على النهوض من كرسيّها، وعيناها مثبتتان عليَّ، وهي تغادر تتلامسُ ذراعانا.

أسأل شيلي: "ما الّذي تصنعينه مع هيلبرت؟".

ولكنّها تعود إلى المطبخ غيرَ مكترثةٍ.

يتحدّث جاك مع روث عند الباب: "هيا يا روث، لنمضِ".

لا أرفع عينيَّ حتى تضع شيلي أمامي فنجانًا من الشّاي.

أقول: "أفضِّل العودة إلى غرفتي في هذه اللّحظة، إن كان لا بأس في ذلك".

"ماذا عن الشّاي والتّحلية؟ إنّكِ لا تفوّتينها عادة".

"لا، لا أريد أيّ شيء آخر الآن".

"لا أعتقد أنكِ ستفوِّتين التّحلية، إنكِ تُحبّين فطيرة الكرز".

"أفضّل تناولها في غرفتي، إنّي متعبة".

"نحن لا نتناول الطّعام عادة في الغرف، ولكنّها ليست قاعدة صارمة، سأحملُ الفطيرة إليكِ".

في طريقي إلى غرفتي، ترافقني شيلي، متخلّفةً عنّي بخطواتٍ، كانت تحمل الشّاي في يدٍ، والتّحلية في أخرى ،أدلِفُ غرفتي، فتتبعني، أجلسُ على مقعد القراءة بكلّيّتي، فيصدر صوتًا.

تضع الطّعام أعلى الخزانة.

"ستجدينه هنا، متى رغبت نفسك في الأكلِ ،ويُستحسَن ألّا يطولَ انتظاره".

وهي تتأهّب للمغادرة، أجالت بصرها في الغرفةِ، وتوجّست من أن تنتبه لغياب اللّوحة، لقد تعمّدت إخفاءَها؛ لأنّني لم أتقدّم في إنجازها قيد أنملةٍ، يتوجب عليَّ العمل عليها أكثر.

تتوجّه نحوي.

أجمع يديَّ في حضني، وأثني أصابعي لإخفاء أظافري.

تنحني، وتحمل يدي اليسرى برفق.

"أوه! انظري لهذا".

تُمرّر إبهامها على أظافري، وتتفحّص يدي الثّانية.

"لقد غدت خشنة بعض الشّيء، سيتعيّن علينا العناية بكِ".

تتابع تمسيد يدي بصورةٍ مبالغٍ فيها.

"هل هذا مُهمٌّ؟".

قالت: "عفوًا؟".

"هل يُهمّك إن غدت أظافري خشنةً أم طويلةً، أو ما إذا عنّ لي قضمُها؟ لماذا أنتِ مهووسة بأظافري؟".

"أنا مهووسة بالعناية بكِ يا بيني، وأظافركِ تنمو باستمرارٍ".

تدع شيلي يدي، فتسقط في حضني، أسمع خطواتها حتّى نهاية الرّدهة، أنتصبُ واقفةً أمام النّافذة، ألصق أذني بالزّجاج البارد، ولا أسمع شيئًا في الخارج.

لا شيء.

أغلق أزرار معطفي الصّوفيّ، وأغادر الغرفةَ مرتدية نعالي، أعبر الرّدهة، وأمرُّ بالمقاعد المخصّصة عند المدخل، وأتوجّه إلى الغرفة المشتركة، أطلُّ برأسي إلى الدّاخل، وأرى المقاعد مرتّبة في نصف دائرة، لم يكن هناك أحدٌ، أدخل وأتوجّه إلى رفِّ الكتب والألعاب، أتناول صندوقيْن من الأحجيات، من مجموعة ألعاب الطّاولة.

أحملهما تحت ذراعي، وأتوجّه إلى غرفة هيلبرت، أحتاج إلى رؤيته، والاطمئنان عليه، أطرق بابه، وأنتظر برهةً دون جدوى، أقرّر الدّخولَ عليه، كان يتجهز للنّوم، وما إن لمحني حتّى أشرقت عيناه، وابتهج لحضوري المباغت.

قلتُ: "أعتذر، لستُ مُتعبة... فكّرتُ لو."...

قال يخاطبني ببهجة: "مرحبًا."

أردتُ سؤاله إن كانت شيلي تعتني بأظافره مثلما تعتني بأظافري، وما إذا كان مثلي يستشعر بعض الضّغط جرّاء رقابتها، وجرّاء العملِ، وأردتُ فضلًا عن ذلك ما إذا كانت تلك العلامات، تلك الحبيبات الفطرية، لا تزال على رقبته.

هناك الكثير لأقوله وأسأل عنه، ولكنّني ببساطةٍ رغبت في رؤيته، أكثر من أيّ شيء آخر.

قلتُ: "أشكرك مجدّدًا على جلوسكَ لأرسمك".

لا يجيبني هيلبرت، ولكنّه يميل برأسه، وكأنّه يحاول التّذكر.
سألته: "ما رأيك ببعض التّسلية قبل النّوم؟ أعرف كم تُحبُّ الأحجيات".

يتخيّر من بينها صندوقًا كُتب عليه "لغز باندو"، ورُسم عليه مشهد طبيعيّ لغابةٍ ضخمةٍ. أفرغ هيلبرت ما بداخله على المكتب، لأنتبه في تلك اللّحظة إلى الشّبه الكبير بين ما رسم على الصّندوق، ومشهد الغابة الحقيقيّة في الخارج، إنّهما متشابهان حدّ التّطابق.

يا له من أمرٍ مذهلٍ، أرفع الصّندوق بعد إفراغه إلى النّافذة، وأقول بحماسةٍ: "انظر، إنّه يكاد يطابقه".

كان هيلبرت مشغولًا بالأحجية، يتناول القطع، ويحاول إيجاد ما يتناسب معها.

قلتُ: "أليس هذا غريبًا؟"

ينظر إليَّ ويقول: "الأشجار البعيدة كلّها متماثلة مع نظيرتها القريبة، لقد تمعّنتُها طويلًا، أعدادها كثيرة، ولكنّها تنتهي دائمًا بالتّمازج معًا."

أحدّق بها عبر النّافذة، أحاول ألا أرمش، إنّه على حقٍّ.

يسألني: "هل قمنا بذلك من قبل؟ أنتِ وأنا؟".

قلتُ: "لا أعتقد هذا".

قال: "يجب أن نتبادل الأدوار، أعني بشأن هذه القطع".

أنحني فوق المكتب، نجمع بين القطع معًا، بعد أن نعثر على المتناسبة منها معًا، وبين الفينة والأخرى ينظر الواحد منّا في عينيْ الآخر.

أشعر بمعدتي تنقبض، متى كان العشاء؟ متى تناولنا الطّعام آخر مرّة؟

قال: "أعتقد أنّ باندو أكبر الكائنات الحيّة في العالم، وبالتأكيد من

أقدمها".

يجمع هيلبرت قطعة بأخرى، فأفعل مثله.

قال: "إنّه."...

سألته: "ماذا؟".

"إنّه كذلك، تلك الأشجار، وهذا الباندو، هناك العديد من الأشجار، ولكنّها في الحقيقة كائن واحد... كلّها معًا".

"ما الّذي تقصده؟".

أضيفُ زوجًا جديدًا من القطع إلى اللّوح الخاصّ بها.

"إنّها مستعمرة، تبدأ من شجرة واحدة".

"أليست غابة؟".

يعثر هيلبرت على قطعتيْن تروقان له، فيحاول الجمعَ بينهما.

"كلّ منها تحمل العلامات الجينيّة ذاتها، وكلّها معًا تشترك في نظام جذرٍ واحدٍ".

"وما الّذي يعنيه هذا؟".

يحاول أن يجمع القطعتيْن بين يديه قسرًا، رغم أنّهما لا تناسبان بعضهما.

قلتُ: "لا بأس، هاتها".

أتناول واحدة، وأستبدلها بأخرى، فيطابقها مع تلك الّتي معه، ومن ثمّ ينظر إليَّ ويقول: "كلّها متّصلة ببعضها بنظام الجذر الّذي يجمعها، أظنّ أنّها تملك خططًا لنا".

"أتقصد شيلي؟".

أمدّ يدي، وأضعها على ساقه، فيضع يدَه على يدي، ويضغط عليها برفق.

لم يُرد هيلبرت إنهاء الأحجية، مثلي، لم يكن على ما يرام، أراد النّوم، فألقى عليَّ التحية، وتركته ينام.

عدتُ إلى غرفتي، ولكنّني لم أشعر بالرّغبة في الاستلقاء على السّرير، هل مضت ليلتان على رؤيتي جاك في المطبخ، وعلى إصابتي الشّديدة بالمرض؟ أنظر إلى الصّورة ذات الإطار على خزانتي، وقد اتجهتْ إلى النافذة، بعيدًا عنّي. لم أرغب برؤيته ينظر إليَّ.

وفجأة، أشعر بطعم معدنيّ في فمي، أنظر إلى نفسي، فأجدني أقضم ظفر إبهامي، فأسرع بإزالته.

أظافري طويلة، في كلتا يديَّ، أرى أطرافها ترتفع أعلى أصابعي، كيف أمكنها أن تطول بهذه السّرعة؟ لقد قُصّت توًّا... من أجل الحفلة.

متى أوان الحفلة؟

كم يومًا يحتاج الظّفر للنّمو؟ أذكر قصِّي لأظافره في آخر أسابيعه، عندما كان أضعف من أن يقوم بهذه المهمّة، أخبرني باعتقاده بأنّ أظافره وشعره يمكن أن يتابعا النموَّ حتى بعد وفاته، ولكنّني أخبرته بأنّ هذا غيرُ صحيح، ما يحدث هو أنّ الجلد عندَ الموت ينكمش على نفسه، فيوهمنا بأنّ الشّعر والأظافرَ يتابعان النّموّ.

أنظر إلى قطعة الفطيرة، وفنجان الشّاي على مكتبي، ما تبقى من عشائي، أرفع يدي إلى أذني، وأشعر بالسّماعات الّتي تمنع عني الصّوت المحيط، متى ارتديتها؟ لم أكن أرتديها في غرفة هيلبرت، لا أسمع شيئًا، ولا موسيقا، ذلك الصّمت العميق والمدوِّي فقط.

أتفحّص الطّعام الموضوع على خزانتي، أشمُّ رائحته، وأمعن النّظر فيه، أتناول الشّوكة، وأستخدمها لقطع جزءٍ من الفطيرة، فأرى تبدّل قوامها، أهرسها بالشّوكة، لتبدوَ لي مثلَ جبنة مذابة، فأسقط الشّوكة أرضًا.

أحاول تثبيت يدي، ألمس الفطيرة بإصبعي، وأضغط عليها، أرفع إصبعي قدر استطاعتي، فأجد خيوطها ما تزال ملتصقة بالشّوكة، بدت لي مثل جبنة الموتزاريلا المذابة، كتلك الجبنة الّتي اعتدتُ نثرها على اللازانيا.

أخاف النّظر داخل الشّاي، ألقي نظرة وأنا ألفُّ الفنجان، يبدو لي السّائل البنّيّ أكثر كثافة ممّا يجب أن يكون عليه، وكأنّه حلوى البودينغ بلون قاتم، ولذُعري، أسقط الفنجان على الخزانة، لينقلب ويُسكب ما فيه.

لا أنظف شيئًا، لا أريد لمس ذلك، بدأتُ أحكُّ ذراعي، من الجيّد فعل ذلك بأظافرَ طويلة كتلك، أحكُّ بقوة أكبر حتّى أشعر بالألم والحرقة، أتابع الحكَّ مقتربة من المرآة، حتى أصبح بيني وبينها قدم واحدة.

ذلك الوجه الذي ينظر إليَّ هو وجهي، تبدو بشرتي أقلّ شحوبًا، ولكنّني أبدو أكبر سنًّا، أرفع كُمَّ قميصي لأرى ظهر ذراعي، أرى علامة ضئيلة، مشابهة لتلك الّتي رأيتها على رقبة هيلبرت في غرفتي، أكان ذلك اليوم؟ إنّها علامة خللٍ ما، كانت ضئيلة لدرجة أوجبت عليَّ الانحناء أكثر لرؤيتها.

لا يزال الصّمتُ مطبقًا حولي، لا بدّ أنّها مجرّد بثرة.

أرفع كُمّي أكثر لتظهر لي علامة أخرى، أكبر من الأولى، وتبرز من

بشرتي بشكلها ثلاثيّ الأبعاد، مثل الفطريّات، مثل الأشنات.

رفعتُ قميصي عنّي مذعورة لأكتشف جذعي مغطًّى بنتوءات فطريّة، أنظر إلي يديَّ، فأجدهما ترتجفان، وأجد أظافري أطول بثلاث مرّاتٍ ممّا كانت عليه منذ دقيقة فقط. وعندما أنظر إلى المرآة من جديد، أرى وجهي ورقبتي تملؤهما الفطريات كذلك.

يدور رأسي وأصرخ: "ساعدني! جاك!".

أصرخ بأعلى صوتي.

لا أسمع صراخي بسبب السّمّاعات، فأخلعها بيديْن مرتعشتيْن، لتمتلئ الغرفة على الفور بصوتِ الكمان، وفي المرآة أرى طرفًا من الجلد منفلتًا بجانب أذني، أبتعد إنشًا عن المرآة، أمسك الجلد بأصابعي، وأسحبه ببطء، فيبدأ في الانسلاخ، أستمرّ في سحبه حتّى يسقط كلُّه.

لا أرى وجهي تحته، لم يعد وجهي في مكانه، إنّه وجه روث، أنظر إلى وجه روث، أكثر شبابًا وجمالًا.

هناك حياة تتشكل من كائنيْن حيَّيْن، يتعاونان فيبدوان كائنًا واحدًا نتيجة العلاقة التّكافليّة، أعرف أنَّ هذا حقيقيٌّ، ويحدث في الطبيعة، أعرف ما تريده شيلي.

تريدنا جميعًا أن نواصل الحياة، ونعمل، ونظلّ في انسجامٍ كي نشكّل كائنًا واحدًا، ونعيش على ذلك.

أشعر بمعدتي تهبط، أشعر بالخوف والذّعر، يتملّكني إحساسٌ بالعجز، فأتراجع، وأسقط على سريري.

أستيقظ وأنا أسعل، أتقلب على جانبي، فتتكوَّم الملاءة إلى جانبي، أصارع لأتنفس، وفي وسط العتمة، أتحسّس ذراعيَّ وبطني ووجهي، فلا أجد أثرًا للفطريّات، ما من شيءٍ سوى بثرة صغيرة على ظهر ذراعي.

من النادر أن تنتابني الكوابيس، لقد بدا لي ذلك حقيقيًّا.

لستُ متأكّدةً ما إذا كان جاك قد ساعدني على الاستلقاء في السّرير، أم أنّ الأمرَ قد حدث في ليلةٍ سابقةٍ؟

أغمض عينيَّ، وأحاولُ أن أفكّر بتركيزٍ، دون جدوى، فأنا لا أذكر أنّني قد خلدتُ إلى النّومِ بنفسي.

أيّ خطبٍ حلّ بي؟

أجلس متعرّقةً بشعري الأشعث، ويتعذّر عليّ رؤيةُ ما حولي، فالغرفة غارقة في الظّلمة، كم السّاعة؟ ينمو الضّيق في صدري، ويتضخّم كما لو أنّ يدًا خفيّة تُطبق عليَّ، أشعر بالضّغط على بطني، ثمّ على رئتيَّ ،أُبطئ من تنفّسي بالعدِّ إلى عشرة، ثمّ إلى عشرين، ثم ثلاثين، يتباطأ نبضي، ثمّ يعودُ تدريجيًّا إلى معدّله الطّبيعيّ.

حدث كلُّ ذلك عندما تناهى إلى سمعي صوتُ روث في زاويةٍ من زوايا غرفتي، كانت تقفُ هناك في العتمة، متجهّمة الملامح، محدّقةً فيّ، رمقتها ترتدي معطفي الصّوفيّ، وترفع يدها إلى جبهتها مثلما تعوّدتُ أن أفعلَ.

تقول: "هششششش!".

أصرخ وكأنّني سقطتُ في مياه تغلي، تقول روث: "علينا أن ننام... علينا أن نأكل، دائمًا، في كلّ مرّة، وكلّ حين، لكي نتمكّن من متابعة العمل".

تتسارع أنفاسي، وكذلك أنفاسها، دونَ أن تبرحَ مكانَها ،تَحني ظهرها فجأةً متّخذةً الوضعيّة الجنينيّة الّتي كنتُ عليْها في سريري، أعتدلُ في جلستي، فتصنع ما صنعتُ.

"ما الّذي تفعلينه هنا؟ ما الذي تريدينه؟ هذه غرفتي، وليست غرفتكِ، وما من تطابقٍ بينهما".

تهمس لي: "بلى، يجب أن نأكل كلّ ما يُقدّم لنا، وأن نظلّ في دفء وراحة؛ لنواصل الحياة، فهذا ما نريده بالفعل".

لا يكون بوسعي سوى الصّراخ من جديد، فتصرخُ مثلما صرختُ، وبعد لحظات قليلة يهرع جاك إلى الغرفة.

يقول: "لا بأس، اهدئي، لقد ارتبكت روث قليلًا."

يسير باتّجاهها مباشرةً، وقد توقّفت عن الصّراخ مثلما توقّفت، دونَ أن تكفّ عن اللّهاث، يخلع جاك عنها كنزتي، ويلفُّ ذراعه حولها، يلامس جبهتَه بجبهتها برفق، ويهمس لها بشيء ما، فتهدأ فورًا، وتلقي بناظريْها على الأرض.

يقول ملتفتًا إليَّ: "أعتذر يا بيني، لا شكّ أنّ الخطبَ قد صدمك، أجدّد لك اعتذاري، وبوسعك الآن العودة إلى النّوم".

وهو يخرجها من غرفتي ظلّ جاك يؤنّب روث ويقرّعها ،وأمّا أنا فقد توجّست لما حدثَ، وفقدتُ الإحساس بالأمان، بدا لي المكانُ مقيتًا.

لا شيءَ يعني شيلي سوى أن تحظى بوقتٍ أطولَ، كلّفها الأمر ما

كلّفَها، ولا شيءَ يرعبها أكثرَ من أن ينفد منها الوقتُ ،تَسْتَبْقينا جميعنا من أجلِ نفسِها.

أنا لست آمنةً هنا، ولا أحدَ من جماعتنا آمنٌ، هذه هي الحقيقة الّتي انبثقت في داخلي واضحةً صادحةً، ولم يكن ذلك الأمانُ الّذي استشعرته إلّا توهّمًا، اعتقدتُ معه لأيّامٍ أنّني في الفردوس.

كيف يمكن أن أعود إلى النّوم بعد تطفّل روث؟ أعدُّ حتّى المئة، عدًّا تنازليًّا، ثمّ تصاعديًّا، أتحرّك في غرفتي جيئةً وذهابًا، ثمّ أحكم قبلَ العودة إلى سريري وضع مقعدي أمام بابها.

هناك حياةٌ في هذا المكان فقط، حياةٌ زائدة عن الحاجة.

أرسي الوسادة على رأسي، وأثبت في مكاني تحت الغطاء، أسمع خطواتٍ في الردهة، أبواب تُفتح وتُغلق، أسمع تدفّقًا للمياه، وأصوات أفرادٍ يتحدّثون، أسمع ضحكًا وبكاءً، لِمَ قد يصحو أحدهم في هذه السّاعة؟

لا أستطيع النّوم.

لا أعرف كم مضى من الوقت قبل أن توقظني روث؟ وما زلتُ بعدُ لا أتذكّر خلودي إلى النّوم، أتقلّب إلى جانبي، وأدرك أنّه لا يمكنني الاستلقاء هنا فحسب.

أحتاج أن أتحرّك.

أرتدي نعالي، وأسير على أطراف أصابعي نحو الباب، أحرِّك المقعد جانبًا بأقصى هدوء ممكنٍ، ثمّ أفتحه.

أستغرق وقتًا طويلًا بين كلّ خطوة وأخرى، وكأنّها دقائق، لم تكن حركتي متّزنة، ولم أرِد أن يسمعني أحدٌ، انشغل ذهني بسماع شيلي خلفي، أو روث، ولكنّني كلّما أنظر إلى الخلف لا أرى سوى العتمة،

والرّدهة الفارغة. عندما يضيء المصباح المستشعر للحركة، أتجمّد في مكاني لوهلة، ثمّ أتابع الخطوات إلى غرفة هيلبرت.

أتملّاه من فتحةٍ في البابِ، نائمًا مثلَ حملٍ وديعٍ، يرتدي سمّاعاته، هادئًا تمامًا، أراقبُ أنفاسه في صعودها ونزولها، وأطرب لإيقاعها، أعادت رؤيته إلى نفسي الإحساس ببعض الأمان، وبالارتياح والطّمأنينةِ.

وددتُ ألّا أفارق المكان، ولكنّني خشيتُ أن أزعجَه، فسرتُ في الرّواق مرغمةً، مررت بغرفة بيت، وكان بابها مشرعًا، رمقته خارج سريره، موليًا ظهره إلى الباب ،رافعًا كفّيه، كان يحمل كمانَه، ويعزف تلك النّوتات ذاتها، إنّه لا يكاد يعزف غيرها، يفعلُ ذلك بمتعةٍ خالصةٍ، وبالشَّغف ذاته.

يُعيد العزف مرارًا، النوتات الثلاث إيّاها، يعيدها مرّة، فاثنتيْن، فثلاثًا... أتوجه إلى الأبواب الأمامية لدار أشجار الأرز السّتّ، حيث البهو، أشعر ساعة اقترابي بخفقةٍ قويّةٍ.

ربما يجدر بي البحث عن شيلي، وإخبارها بشكوكي، وجب أن أطلبَ عونَها من أجل الخروج، ولكنّني لا أعرف أين تنام تحديدًا، بعد لحظة، ستكون هنا إلى جانبي، تسير معي في الرّدهة، وتساعدني في الجلوس على مائدة العشاء، ثمّ تختفي. لن أراها لمدّةٍ طويلة مُمتدّة، هذه دارها، وهي المُتحكّمة بكلّ شيء هنا، يمكنها فعل ما تريد.

أحاول فتح الأبواب الأماميّة، التي عبرتُها مع مايك في اليوم الأوّل لي هنا، ولكنني أجدها مقفلة.

الباب الأماميّ هو الباب الوحيد ذو الأقفال هنا، أجد لوحة إلى جانب الباب، عليها أعدادٌ وحروف، لم يتجرّأ أحدٌ على أن يحبسني من

قبل طيلة حياتي، كان بوسعي الخروج دائمًا كلّما أردت ذلك، كان بوسعي أن أخرجَ للحياةِ، أتنفّس طيّب الهواء وأنتعش، وأشعر بمرور الرّياح إذا هبّت، كنتُ سأضغط أعدادًا عشوائيّة لأرى إن كان بإمكاني أن أحزر الرّمز، وأتمكّن من الخروج، ولكنّني سمعتُ صدى عزف بيت يتردّد في الرّدهة.

إلى جانب الباب، علّقت على الحائط لوحة، لطالما أحببتُ هذه النّسخة، أكانت هنا طَوال الوقت؟ لوحة "البومة الصّغيرة" لآلبرخت دورر، من القرن السّادس عشر، كانت مرسومة بالألوان المائيّة على الورق، أمّا اللوحة الأصليّة فكانت في متحفٍ ما في فيينّا، لطالما أُخِذتُ بتلك العينين المدوّرتين والمظلمتيْن للبومة.

لم أشأ يومًا تجنّب تصوير العتمة في أعمالي، عتمتي الخاصّة، ولكنَّ إظهار ظلمتي الخاصّة لم يكن كافيًا بحد ذاته، فما أردته على وجه خاصّ أن يتحرَّر أحدٌ من ظلمته عندما ينظر إلى عملٍ لي.

لا أشعر بأثر لوحة البومة الصغيرة عليَّ، ذلك الأثر الّذي اعتدته من قبل، إنّها لا تترك فيَّ أثرًا، أو انطباعًا، ولا تكاد تهزّني أو تستثيرني، إنّ ما نشعر به إزاء شيءٍ ما أمرٌ لا يمكننا تحديده، أو إقراره، للمشاعر منطقها الخاصّ في الحضور، وفي الغياب، كنت مشغولةً عمّا حولي بما ينشأ عن عزف بيت من صدى في غرفته.

أنظر إلى الدّرج، ولا أذكر أنّني صعدته يومًا، لا بدّ أنّ شيلي تتوجّه إلى هناك ليلًا.

أرى لوحة أخرى معلّقة على جدار الدّرج ،وجَبَ عليّ صعود الدّرجة الأولى حتّى تتسنّى لي رؤيتها، كانت عملًا فنيًّا مألوفًا منذ زمن بعيد، إنّها لوحةٌ شهيرةٌ لشخصيّتين عاشتا في عصر النّهضة في إيطاليا،

رُسمت بألوان زيتيّة على الخشب، بريشة بييرو ديلا فرانشيسكا، صوَّرت اللّوحة دوق مونتيفيلترو ودوقتها، رُسم وجهاهما من الجانب، ينظران إلى بعضهما بعضًا، لقد توفّيت في أثناء وضعها مولودًا، وعاشت حياة قصيرة.

أخبرني عن هذه اللوحة في ليلة ما، وذلك بعد مدَّةٍ وجيزة من لقائنا، وشرح لي كلّ ما يتعلّق بها: سياقها، ورمزيّتها، وأسلوبها، وما تعلّق بمبدعها من تفاصيلَ دقيقةٍ، كان يعرف الكثير عن الفن.

كان صاحبَ معرفةٍ موسوعيّةٍ، وغزيرةٍ، وأتذكّر أنّه في تلك الفترة قد سافر إلى أوروبّا لشهرٍ من الزّمان، وأوصاني بسقاية نباتاته الّتي كان يعجّ بها مرسَمه، وتربطه بها علاقةٌ خاصّةٌ، حرصتُ على ذلك بيد أنّني أهملت واحدةً فماتت، لم أنبئه بإهمالي لها حتّى لا يغضبَ، ولم يكلّفه نسيانها أكثر من يومٍ واحدٍ. مكتبة سُر مَن قرأ

لا أعرف ما دعاني إلى إهمالها تحديدًا، مثلما أنّني لم أستسغْ نسيانه السّريع لأمرها، والحاصل من تلك الحادثة أنّني أصبحتُ أكثرَ عنايةً بنباتاته، أسعدني ذلك بادئ الأمرِ، ولكنّني صرتُ أشعر بمرور الوقتِ، أنّ ما قضى منها كان الأكثرَ حظًّا .

انحنيتُ، ورأيتُ بقعة على الجدار، إلى يسار الدّرج، بالقرب من أسفله، وباستخدام دبّوس شعري، صنعتُ علامة، خطًّا ما، على الخشب النّاعم.

علامة واحدة تكفي، فإن نسيتُ، سيكون هذا دليلًا، وسأعرف أنّني وقفتُ هنا من قبل.

أفتح عينيَّ، لأجدني وحيدةً في غرفتي، أتملّى غطائي، وأسفل قدميّ،

أحرّك أصابعها، أرى ضوء الشّمس يتدفّق من النّافذة، ويملأ الغرفة، أرى ظلال الشّجر من الخارج تتراقص على سريري، وعلى جسدي، أجد صعوبة في التقلُّب، وإخراج ساقيَّ من السّرير، أدخل قدميَّ في نعليَّ، أرى إصبع قدمي اليسرى الكبير يُطلّ من ثقب النعال، وكأنّ النّعل تقلّص بمرور اللّيل.

لا يمكن أن يكون هذا صائبًا، أنزعها، وأحاول شدَّها، ولكن مهما دسستُ قدمي في النّعال، أشعر به يضيق عليّ.

أشعر بالذّنب، لأنّني لا أعمل على لوحة هيلبرت على أكملِ وجهٍ، تريدنا شيلي أن نظلّ مُنتجين، وأن نعمل كلّ يوم، ونُنجز مهامنا؛ ترى أنّ مثلَ ذلك الأمر من شأنه أن يبقينا شبابًا، وأن يهبَ حياتنا معنًى وغايةً، وجب أن أكون أكثرَ جدّيّة ومثابرةً، وألّا أهدر ساعات الصّباح في النّوم، عليّ أن أبادر بارتداء ثيابي، وأن أتناولَ ما أحتاجه من طعامٍ، لأقضي بقيّةَ اليومِ في الرّسمِ.

ها هي، لوحة هيلبرت، على مكتبي، غير مكتملة، كيف وصلت إلى مكتبي؟ أقترب منها، وأرتدي معطفي الصّوفيّ فوق رداء نومي، متى اشتغلتُ عليها آخر مرة؟ تبدو لي... مختلفة، يبدو مختلفًا فيها.

أشعر بقشعريرةٍ على مستوى ذراعي، ويُخيّل لي أنّ أحدهم يحدّق بي من الخلفِ، أفتح درج خزانتي، وأجد المنديل الّذي أحضرته معي من آخر عشاء لي، أفتحه، فأجد بداخله قطعتَيْ الجزر، وقد تعفّنتا، أرمي المنديلَ بعدَ طيّه في سلة المهملات، وأجلس على سريري.

يقول جاك وهو يدلف الغرفةَ: "صباح الخير يا بيني".

أرمقه، وأتردّد فيما يجدر بي أن أحدّثه به، لست أدري إذا كان من اللّائق بي أن أخبره بفهمي لحقيقة ما يدور في هذه الدّار، وما يراد بنا

من صاحبتها، هل يجدر بي أن أخبره بِوَله شيلي العجيب بأن تتابع سيرورة الأيّام، وما ننتجه فيها بصورةٍ جماعيَّةٍ متناغمةٍ ،تناغُمَ الأشجار في الغابة.

يجلس جاك على السّرير إلى جانبي.

أقول: "عشتُ في الشّقة ذاتها نصفَ قرنٍ بأكمله، وكان لنا خلالَ تلك المدّة أصدقاء يشاركوننا ما كنّا ننظّمه من وجبات وحفلات، غير أنّنا كنّا نقضي أغلب الوقتِ معًا، لطالما أراد أن يكون لنا أطفالٌ، ورفضتُ، أتذكّر أنّنا قد تشاجرنا بسبب ذلك بصورةٍ حادَّةٍ، ولكنّه اقتنعَ في آخر المطافِ، ولم يكن بإمكانه أن يجبرني".

"أعرف طبيعة ذلك، ولهذا فإن هذا المكان مناسب لكليْنا، ليس بالضرورة أن يكون نسيان المرء لماضيه أسوأ الأمور".

"ألا يخيفك ذلك؟ ألّا تتذكّر أجزاء من حياتك؟".

قال: "كان سيخيفني أكثر أن أتذكّر كلّ شيءٍ طوالَ الوقت، تمنحني شيلي دائمًا الفرصةَ لأبدأ من جديدٍ، إنّها تصفح، وتغفر لي فإذا استهلكت الفرص جميعَها، تمنحني فرصتي الجديدةَ، أبدأ من جديدٍ ، وأتجاوز، بداية شبيهة ببدايتك عندما حللت بهذا المكانِ، كلانا محظوظٌ لأن نكون جزءًا من هذا".

"من هذا؟".

"من هذا المكان، دار أشجار الأرز السّتّ."

6—5—4—3—2—1

"ما الّذي تعرفه عن الغابة في الجوار؟".

قال: "إنّها هادئة".

"إنّك تبدو كشيلي الآن، أريد أن أعرف عنها معلوماتٍ، فكم يبلغ

حجمها؟ وما الّذي يوجد هناك غيرها؟ هل تحيط بالدّار إحاطة كاملة؟ هل تمتدُّ إلى ما لانهاية؟ أشعر أنّ نوافذ الدّار كلَّها تُطلّ على الأشجار، لم يتسنَّ لي الخروج من هنا يومًا، هل خرجتَ أنت؟".

"لماذا تسألينني عن هذه الأشياء كلِّها يا بيني؟".

"أخبرني! ما الّذي يقع خارج هذه الدّار؟".

"اهدئي من فضلكِ، لا أعرف ما ينتابكِ اليومَ، إنّك منفعلة".

أغلق عينيَّ، وأتنفس جيّدًا، ثم أفتحهما، وأنظر مباشرة إلى عينَي جاك، أشعر بألمٍ حادٍّ في رأسي.

"ما الّذي تريده؟ ما الّذي تحاول فعله بنا؟".

"إنّي معجب بك يا بيني، وهذه حقيقة، تملكين ذهنًا حادًّا، لقد تغيّر شعوري نحو الأمور منذ وصلتِ إلى هنا، تغيرتْ في نظري، ولكنني لا أستطيع المخاطرة بما أحظى به، إنّها مُحقة، فأنا لا شيءَ، خارج هذا المكان".

ينظر جاك إلى خلفه قبل التّحدث.

"إنكِ محميّة هنا من المخاطر كلّها التي تصيب امرأة عجوزًا، حسنًا؟ إنّنا نعتني بكِ، لن تكوني وحيدة من جديد، أعدكِ".

يقف جاك، ويضع يده على كتفي، يُربّت عليه، ويغادر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يغادر جاك، ولكنّ كلماته تظلّ عالقةً بذهني، لن أكون وحيدةً، وأنا في تقديره في مأمنٍ ممّا يمكن أن يصيبَ عجوزًا في مثل سنّي، وما يتهدّدها من مخاطر، ثمّ إنّه أكّد فيما أتذكّر أنّ النّسيان أمرٌ جيّد؟ ولكن ما الضّريبة؟ ماذا عليّ أن أقدّم في مقابل تلك الحماية؟

أرغب في أن أتذكّر بوضوحٍ الأوقات الرّائقة الّتي جمعتنا في شقّتنا، ولكنّها تبدو بعيدةً وقليلةً، لقد تضاءلَ ما بيننا في كهولته، وازداد في المقابل شغفه بعمله، وبتأمّلاته، لقد كشف لي حينها عن حقيقته عاريةً، عن جوهره.

أنهض، وأبحث عن جاك، لا يمكن أن يكون بعيدًا، لقد غادر غرفتي توًّا، كان مخطئًا في يقينه بأن لا معنى له خارج هذا المكان... لا أعتقد ذلك حقًّا.

أصل إلى الغرفة المشتركة لأجد روث تجلس وحيدة، تشاهد التّلفاز، حيث يُعرض فيلم قديم، أقف، وأشاهده، أعرفه، أعرفه جيّدًا، أذكر مشاهدتي له للمرّة الأولى في قاعة السّينما، كانت ممتلئة آنذاك، تناولتُ الفشار بالزّبدة، يمكنني شمُّ رائحته، وتذكّر الدّهن على أصابعي، والطّريقة التي لحستُ بها الزّبدة، إصبعًا تلو الآخر، شربتُ مياهًا غازيّة من الحجم الكبير، إنّه فيلم "تيلما ولويز"، أرى روث تشاهده باهتمام، كان فمها يتحرّك مع عبارات الفيلم، لا بدّ أنّها أحبّته كذلك، مثلما أحببته، لقد شاهدته مرارًا، لا بدّ أنّ روث تحفظه عن ظهر قلب.

في نهاية الفيلم ترحلُ الفتاتان عن هذا العالم، وتودّعانه إلى الأبد، رغم مأساويّة تلك النّهاية فقد أحببتها، ولم أكن أتصوّر نهايةً أجملَ منها.

لم تكن روث وهي تتابع الفيلمَ لتفوّتَ عبارةً واحدةً، وكان في رؤيتها وهي تشاهد الفيلمَ سحرٌ ومتعةٌ، كنت أنتقلُ بناظريّ بينها وبين الفيلم، لأدرك أنّها لم تكن تعيد عباراته بالإنجليزيّة، بل بالفرنسيّة، إنّها تُترجمه في أثناء مشاهدتها له، أهمس لها: "أنتِ جميلة جدًّا."[6]

أنتبه فجأةً إلى وجودِ لوحةٍ عملاقةٍ على الجدار، لا أتذكّر أنّني قد رأيتها من قبل، رغمَ تردّدي على المكانِ، كيف لم ألحظها من قبل؟ لطالما كان الجدار فارغًا، أقترب منها، ينتابني إحساس مزعج في دمي.

أدنو من اللّوحة لينتابني شعورٌ غريبٌ إزاءَها، يا له من خطبٍ مريبٍ ومريبٍ، إنّها واحدةٌ من لوحاته! إنّها واحدةٌ من أهمّ رسوماته الّتي أخذت منه وقتًا طويلًا، وجهدًا مضنيًا، لم يكن الانتهاء منها هيّنًا، فقد كان شديدَ التّوتّر في أثناء إنجازها، إنّها لوحته المحبّبة ،والأكثرُ خصوصيّةً، لم يُقدم أحدٌ على اقتنائها، وقد سرّه ذلكَ، لأنّها تمثّله هو، ولا تعني غيره.

إنّها الآن هنا، حيث لم أتصوّر أن تكونَ، أشعر بالدّوار، وأسند يدي إلى الجدار حتّى أُعيدَ التّوازنَ إلى جسدي، وفيما أنا كذلك تنبّهتُ إلى ذلك القطّ يتمسّح على كاحلي، لم يكن لطيفًا بالمرّة، بل عدوانيًّا، حاولتُ إبعاده، ولكنّه أمعنَ في عدوانيّته، وخدش ساقيّ، بل عضّني دون رأفةٍ.

"آخخ!".

وفجأة، يخيفه أمرٌ ما، فيقفز إلى نهاية الرّدهة، أنحني، وأفرك موضع

(6) قالتها بالفرنسية. (المترجمة)

العضّةِ، أشعر بحاجةٍ إلى أن أستردّ أنفاسي، فأتهالك على الكرسيّ، وأغمض عينيّ.

جاك يهزُّ ذراعي برفق، يناديني: "بيني".

لقد غفوتُ في الغرفة المشتركة، لم تعد روث هناك، ولا القطّ ،لا يزال التّلفاز مضاءً، أشعر بجفافٍ في فمي، أحتاج الماء.

يقول: "بيني... رجاءً... استيقظي".

يهزُّ ذراعي من جديد، ويبدو فاقدًا لأعصابه.

"أمعنتُ التفكير في قولك، وعليَّ إخبارك أمرًا ما، عليَّ أن أسرع".

أفتح عينيَّ على اتّساعهما، وأمعن النّظر في وجهه، إنّي أحلم، ولكنّني أشعر بيده على ذراعي، لا، كنتُ أحلم من قبل، والآن أعيش الحقيقة، هذا جاك، وهو يقف أمامي، يلمسني، مذعورًا.

يناديني من جديد: "بيني! هذا المكان يختزلُ ما تروم تحقيقَه منذ زمنٍ، وما كرّست له حياتَها، تريد له أن يمثّل مجتمعًا مصغّرًا، تتحكّم هي بدواليبه، وتحرّك خيوطَه، ولا تريد لأيّ طارئ أن يربكَ عزمَها، تريد أن تفهم الكثير عن الحياة المديدة، وأكثر ما يخيفها أن تكبر و."...

يسمع كلانا صوتًا ما، يرفع جاك إصبعًا إلى شفتيْه.

قال: "إنّها هي، عليَّ الذّهاب، لا يمكنكِ أن تخبريها بما دار بيننا".

أعرف ما يريد أن يضيفه، بالنّظر إلى عينيْه فقط: أنتِ مُحقّة، لطالما كنتِ مُحقّة حول ما تفعله بكِ، إنّها تُبقيكِ على قيد الحياة، تبقيكم جميعًا أحياء.

ودون أيِّ كلمة أخرى، يلتفت فجأة، ويغادر الغرفة.
أُغلق عينيَّ، وأريح رأسي على الكرسيّ خلفي، مُرهقةً ومُرتبكةً.

أسمع خطواتٍ في الرّدهة تصوّب جهةَ الغرفةِ، كنتُ نائمة على الكرسي، ووددتُ لو أنّه جاك جاءَ ليخبرني بالمزيد، ولكنّه حتمًا ليس هو.

إنه صوت الكعب العالي، إنّها هي.

تقول شيلي وهي تدخل الغرفة: "تنامين القيلولة في مكانكِ المفضّل، أعلم كم تحبّين المنظر من هنا".

هل لديّ مكان مفضّل؟ وجَبَ عليَّ ابتلاع ريقي قبل الحديث.

سألتها مشيرة إلى الكرسيّ الصّغير المقابل للحائط: "ماذا عن ذاك؟".

"ذاك الكرسيّ؟".

"أجل".

"ليس هناك ما تنظرين إليه إن جلستِ عليه، أنتِ تُحبّين كرسي النافذة الخاصّ بكِ، فعليه تستطيعين رؤية الأشجار".

هل جلستُ هنا من قبل؟

لطالما راودتني أحلام مثيرة، حتّى في صغري، حلمتُ بالألوان، وكنتُ أحلم أحلامًا قصيرة تلائمُ عمري، بلا هوادة وبلا حبكة، وها أنا اليومَ في هذا العمر المتقدّم، أحلم بالأشجار الطّويلة خلف الدّار، تلك الفارغة من الأوراق، تنتصب مع مثيلاتِها في وحدة، تترنح بخفّة، تشتبك مع ما حولها من الأشجار طلبًا للدّفء.

"أريد التّجول خارجًا."

تتغيّر تعبيراتها، لا يكون ذلك شديدًا، ولكنّني ألحظه.

"لدينا هذه النوافذ الجميلة كلّها لتزويدكم بالضّوء قدر الإمكان، لا أريد إثارة استيائك، ولكنني أعتقد أنّكِ تعانين من خللٍ ما في الذّاكرة".

لا، على ما أعتقد، لا أعاني خللًا في الذّاكرة، ولكنّني أدرك أنه لم يتسنَّ لي الخروج لأيّامٍ عديدة فقط، منذ وصلتُ إلى هنا، اعتدتُ الخروج للسّير من قبل، حتّى عندما يكون الجوّ باردًا، أحببتُ ملمس الهواء على وجهي، ولم أكترث لابتلال قدميَّ تحت المطر، يمكنني تذكّر هذا كلّه.

قالت لي: "تلك الغابة يا بيني، والمنحدرات، يمكن أن تغدر بكِ، كما أنّ الثلوج تغطّي المكان، وقد كانت سببًا في موت غوركي الأسبوع الماضي".

"غوركي؟".

"القطّ، لقد اخترتِ اسمه بنفسكِ، لقد مات، أتذكرين؟ خرج من هنا، وتجمّد حتّى الموت، كان ذلك مريعًا، ستكونين أفضل إن نلتِ قسطًا من الرّاحة يا بيني".

"ماذا؟ لم يمُت غوركي!".

أركّز بصري على قدميّ، فلا أجد أثرًا للعضّةِ، يا للهولِ، لم أعد أفهم ما يجري، تنزلُ في الأثناء دموعٌ لطالما حبستها في السّاعات الأخيرة حارّةً وسخيّةً، على وجنتيَّ.

تضع شيلي يدها على كتفي، وتقول: "احظي بقيلولة".

ومن ثمّ تغادر الغرفة.

وبمغادرتها، التفتُّ لأرى هيلبرت جالسًا إلى جانبي، هل كان هنا

طوال هذا الوقت؟ لم يتفوّه بحرف ،ما زلتُ أبكي، ولكنّني أشعر بالرّاحة لرؤيته.

كان يعمل على الأحجية الّتي بدأنا العملَ عليها في غرفته، لا أعرفُ تحديدًا كيفَ أمكنه أن يكونَ الآنَ وهنا، أراه منهمكًا جادًّا فيما يصنعُ، وبدا لي أنّه قاب قوسيْن أو أدنى من أن يجيءَ على حلّ الأحجية بصورةٍ نهائيَّةٍ .

قال يرفع ناظريْه: "لا يمكننا الخروج إلى هناك".

أتملّى وجهَه وعينيْه، لا يبدو بخير، بل ضعيفًا وهِنًا.

"لماذا يا هيلبرت؟ لِم لا؟".

"لأنّ الأخطار محدقة في الخارج، وعلينا أن نظلّ في هذا المكان لنسلمَ".

كان صوته ضعيفًا.

سألته: "هل حظيتَ بأيِّ زوّار؟".

ينظر إلى يديه، وكأنّه يتساءل: يدا مَن هذه؟

يقول رافعًا ناظريه: "حظينا بالزّوار في منزلنا، طوال الوقت، كنا نحظى بحفلات عشاء، ونستمع إلى الموسيقا، ونشرب النّبيذ حتى ساعة متأخّرة ،وأحيانًا كنّا نحاول التحدث بالفرنسية معًا."

قلتُ: "ماذا؟ لا يا هيلبرت! هذه ذكرياتي أنا، وليست ذكرياتك".

قال: "نحتاج المزيد من الوقت، جميعنا يحتاج إليه، جميعنا".

يغلق عينيه، ويرجع بظهره إلى مقعده، يتحدث بهدوءٍ، وعيناه مغلقتان، يدمدم: "باندو، باندو من الأحجية".

"ماذا، هيلبرت؟ ما الّذي قلته؟".

يعيد قوله مغلقًا عينيه: "باندو، "أنا أنتشر"، في اللاتينية، باندو

تعني" أنا أنتشر.""

أنهض ببطء، وأنزع النّعال من قدم هيلبرت اليُمنى، أجد صعوبة في ذلك بسبب ارتجاف يدي، أذعر عند رؤيتي لذلك، لقد غدت أظافر قدمه طويلة وخشنة، كأظافري، وكأنّها لم تُقلم لأسابيعَ عديدة، أعيد إليه نعاله، وأنهض.

يسألني: "إلى أين تذهبين؟".

قلتُ: "للبحث عن أمرٍ ما، ابقَ هنا".

أسير عبر الرّدهة وأتوجّه يمينًا، أسير بمحاذاة الحائط.

عند عبوري غرفة الطّعام، ألمح جاك يقوم بمهامّ التّنظيف، أصادف لحظة نموذجيّة من أحد أيّام عمله، أشاهده لدقيقة في العتمة، وأنتظر حتّى لا يكون أحد في الجوار، فأتوجّه إلى الطّاولة الجانبيّة حيث كان يقف، أجد نشرة مطويّة في منتصفها، ألتقطها، فأرى أنها تحمل صورة لي، أبدو في الصّورة أصغر بكثير، حيث أبتسمُ، من الغريب رؤيتها، لا أذكر التقاطي لها من قبل، أفتح النشرة، وأبدأ في القراءة جهرًا:

"رحلَت بيني بهدوءٍ عن عمرٍ يناهزُ الثّانية والتّسعين، في دار أشجار الأرز السّتّ، ودّعت الحياةَ وهي محاطة بطاقم من العاملين لطالمَا عاشت بينهم فأحبّوها، تركت بيني وراءها مجموعة فنّية مذهلة، وأعمالًا رائعةً، وتركت اللّوعة في نفوسِ أصدقائها الّذين شاركوها أجملَ أيّامها في الدّار، أحبّها الطاقم ونزلاء الدّار، وعدَّها الجميع جزءًا من العائلة، خلالَ سنوات إقامتها بالدّار، زارنا الأسقف في الدّار، وكُرّمتْ روحها الزّكيّة في موكبٍ جليلٍ، سيفتقدها الجميع بصدق".

أشعر بساقيَّ ترتجفان وتعجزان عن حملي.

أسقط النّشرة على الطاولة، وأغطي فمي بكلتا يديَّ.

ما هذا؟ أشعر بألمٍ حادّ في رأسي مجدَّدًا، ألمٌ يخفق عميقًا خلف عينيَّ، أشعر وكأنّ المرض أصابني، أنحني، ولكنّ شيئًا لا يخرج منّي، خيطٌ رفيع من اللعاب والعصارة الصّفراء فقط.

ما الّذي يحصل؟ ما الّذي يحدث في هذا المكان؟ ما الّذي يفعلونه بنا؟

ستُرسل هذه النّشرة إلى الخارج، وسيصدّقها النّاس، سترسلها إلى مايك، وسيصدّق أنّني تُوفّيت، ولكنّني سأكون على قيد الحياة، هنا معها.

ما الّذي فعلته بي؟ يجب أن أعود إلى غرفتي، أن أكون وحدي، وأفكر في الأمر.

أحتاج الاختباء منها في مكانٍ ما.

يأخذُ منّي الأمرُ وقتًا أطولَ ممّا اعتدتُ، أعبر الرّدهة المفضيةَ إلى غرفتي فلا أكاد أجدها، أجد أنّي في ردهةٍ أخرى، فأتابع السّيرَ يمينًا، أصلُ غرفتي، أو ما خُيّل لي أنّها غرفتي، يا له من فضاءٍ ممتدٍّ بلا نهايةٍ، فأعودُ أدراجي.

هذه الدّار متاهة، وهذه الرّدهات، تطولُ وتقصرُ، وتتّسع وتضيق، حسبَ الأزمنةِ، إنّها أكثر ضيقًا في اللّيل، وأشدّ اتّساعًا في النّهارِ، ثمّ إنّها تتغيّر تبعًا لمن يعبرها، ولمرحلة الحياة الّتي يعيشونها وهم يعبرونها.

وأنا أعود أدراجي، أتّخذ اتّجاهًا معاكسًا، فإذا هو أطول ممّا كان عليه يومًا، وقد تبدّل عمّا كان عليه البارحة، إنّها الرّدهة ذاتها، أعرفها جيّدًا، ولكنّها أطول.

أعود ثانيةً، وأسير من جديد، على الجهة اليسرى هذه المرّة، قبل أن أرجع إلى باب غرفتي.

أدخلها، أتوجّه إلى الحمّام، وأغلق الباب، لا يمكنني ألّا أفكر بتلك النّشرة، لم يجدر بي رؤيتها، ففي تلك اللحظة كانت تحتلّ كامل ذهني.

"أحبَّها الطّاقم ونزلاء الدّار، وعدَّها الجميع جزءًا من العائلة، خلال سنواتِ إقامتها في الدّار."...

"خلال سنواتِ إقامتها."!...

"السّنوات."!...

كم مضى على نزولي في هذا المكان؟ لقد مضت أربعة أيّام فقط، لستُ أفهم شيئًا.

إنّي أتعرّق، أرشّ الماء البارد على وجهي، أنشفه بالمنشفة، أحاول تثبيت يديَّ عن الارتجاف، أتوجّه إلى المرحاض، أرفع رداء نومي عن الأرض، أجلس للتبوّل، وعندما أنتهي، وأقف، أضغط على زرٍّ تدفّق المياه، فيلفتني أمرٌ في المرحاض، أنحني لرؤيته بوضوح قبل أن تسحبه المياه بعيدًا، هناك حركة خفيفة في المياه، جسيمات ضئيلة، أتُراها حيَّة؟

أتراجع مدهوشة، وأطبق الغطاء على المرحاض، أصرخ، فلا أكادُ أسمعني.

أين أنا؟

ما الّذي أفعله هنا؟

كم مضى على مكوثي هنا؟

أضغط على زرٍّ تدفّق المياه ثانية، وأنتظر أن يفرغ الصّندوق، أضغط ثالثة ورابعة وخامسة..

عندما أخرج إلى غرفتي، أجد شيلي هناكَ، بشعرها المرتّب، وبما يزيّن وجهها من مساحيقَ تجميليّة متقنةٍ، كانت مذهلةً في ثوبها الأحمر، وقفّازيْها المطّاطين.

تقول: "مرحبًا، عزيزتي بيني، كنتُ أنظّف غرفتك".

كانت تحمل منفضة غبار طويلة تنتهي بالرّيش، وتتجوّل في الغرفة ببطء، تنظف مختلف الأسطح والأشياء، وجدتُ دلو تنظيفٍ عند السرير، أتوجه إليه، وأركله بقدمي قليلًا، فتتحرّك المياه الداكنة والمتسخة.

"تفضّلي بالجلوس، سأنتهي قريبًا".

قلتُ وأنا أجلس على سريري: "غرفتي نظيفة".

"ولكنّها لن تظلّ كذلك، ولا تظلّ كذلك على الإطلاق، خاصّة عندما نعيش فيها".

"رأيتُ."...

ولكنّني أتردّد، غير أكيدة من أنّه يجب عليّ قول أيّ شيء بخصوص النّشرة.

راحت تزيل الغبار عن الصّورة ذات الإطار على خزانتي.

"ما الّذي رأيتِه؟".

"نشرة، إعلان عن وفاتي، رأيتها".

"أعتذر يا بيني، لم يجدر بجاك أن يدعها في الجوار، لا بدّ أنّكِ شعرتِ بالغرابة لرؤيتها".

أشعر بدمي يغلي.

كيف يجرؤون؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

"إنّها لم تكن مجرّد نشرةٍ مكتوبةٍ، فقد تيقّنت من أنّك تعتزمين إرسالَها خارجَ الدّار، ليحسَبَ النّاسُ أنّني قد رحلتُ! وحتّى أكون ميّتةً في اعتقادهم فلا يفكّر أحدٌ في زيارتي، ويكون بوسعك حينها استبقائي في هذا المكان كما تشائين!".

"من الّذي تتوقّعين أن يسأل عنكِ؟ هل اتّصل مايك ليتفقّد أحوالكِ؟ هل حضر للزّيارة؟ إنّنا لا نرسلها إلى أيّ مكان يا بيني، أنا آسفة، ولكن ليس هناك من نرسل النّشرة إليه".

يوقفني حديثها عن المضيّ أبعد من ذلك.

قالت: "الحقيقة أنّ شريكك قد خطّها بيده قبل وفاته، وكان حريصًا على ذلك الحرصَ كلَّه، فتلك طريقته في مساعدتنا، والتّأكد من أنّ الأمور كلَّها ستجري على ما يرام، وعلى مستوًى رفيع، أراد العناية بكلّ أمرٍ، أخبرني بأنَّ هذا ما ستودّين فعله، لم يجدر بكِ رؤية ذلك ،وإنّه خطأ جاك الّذي ما كان عليه أن يتركها هناك".

سألتُ: "أين جاك؟".

تتوقّف عن العمل، وتضع عنها المنفضة.

"رجاءً يا بيني، إنّك لا تنصتين إليَّ".

سألتها: "ما الّذي تحاولين فعلَه بنا؟ لا يمكنكِ إجبارنا على العيش بهذه الطّريقة، لا يمكنكِ ذلك!".

"أتعرفين يا بيني معنى التّقويض؟".

قلتُ: "لا".

"إنّه يعني الأيض الهدميّ، عندما يُخلق نظام بيئيٌّ دقيق – كهذا الّذي نعتمده في دار أشجار الأرز السّتّ، حيث نعيش جميعًا معًا– فإنّ كلّ حياة تساهم في بقاء الأخرى، فنستفيد جميعًا من ذلك، نمنح بعضنا الحياة، هكذا نعيش هنا".

تقترب منّي.

"تكون إذًا كلُّ حياة معتمدة على الأخرى، إنّنا نحتاج بعضنا بعضًا يا بيني، علينا جميعًا أن نتلاءم مع المكان".

أنظر إلى يديَّ، يستحيل عليَّ تصديق مظهرهما المتجعّد وقد برزت عروقهما، لقد صارتا بلا فائدة تقريبًا، إنّ هذا يعكس ما يريده الجميع، أن يَبدوا أكثر شبابًا، وأن يحظوا بالمزيد من الوقت.

قالت: "عندما يُقتلع وترُ الكمان، فإنّ الوتر الّذي بجانبه يُردّد عزفًا متعاطفًا معه، حتى عند بقائه سليمًا، وكذلك البشر، فكلما تمكن الواحدُ منّا من إلقاء الماضي خلفه، ارتاح في هذا المكان، واسترخى، ليس عليكِ القلق بشأن العودة حيث كُنت، فمقامك بيننا سيكون دائمًا ونهائيًّا".

أجد كأسًا مملوءة بالماء إلى جانب طاولتي، أفكّر بالشّرب منه لأطفئ عطشي المتفاقم، ولكنّني بدلًا من ذلك، أستلقي على جانبي جرّاء الإنهاك.

"لقد عشتِ معه لسنين طويلة يا بيني".

"عفوًا؟".

تدور شيلي بالصّورة ذات الإطار حتّى تجعلها في مواجهتي. ذاك هو، الرّجل الذي قضيتُ معه سنينَ طويلة، والذي رأى العالم من

منظور واحد فقط، وبطريقة واحدةٍ فحسب، ذلك الذي احتاج يائسًا إلى التأقلم في المكان.

"هذا هو المكان الذي اخترته، وقد حرص على وجود من يرعاكِ لأطول مدَّةٍ ممكنة، عليكِ أن تكوني ممتنّة للمدَّة الإضافية التي تحظين بها يا بيني، تلك المدَّة التي لم يتوقّعها".

أُغلق عينيَّ، وأسحب الوسادة إلى صدري، أحكم إغلاقهما، لا أريد رؤيتها أكثر من ذلك، لا أزال أشعر بها تتحرّك في الغرفة، ومن ثمّ لا أسمع شيئًا، حتّى تبدأ الحديث:

"يفقد النّاس الأمل من أنفسهم بسهولة وسرعة، ليس هناك ما يمنعنا عن المثابرة لتحقيق المزيد".

وبمغادرتها، تُطفئ الضّوء، فيعمُّ الصّمت.

أقول للغرفة الفارغة: "لا، أنتِ مخطئة، لا يمكننا قَبول التّخلّي عن الماضي بسهولة".

الظّلمة حالكة، والعتمةُ تحول بيني وبين رؤية الجدار أو الخزانةِ من مكاني على السّرير، بالكاد تمكّنتُ من رؤية يديَّ عندما رفعتهما أمام وجهي، لا بدّ أنّه منتصف اللّيل، ولكنّني مستيقظة تمامًا.

أمدُّ يدي لتناول كأس الماء من على الطّاولة بجانب سريري، ولكنّني أجده فارغًا.

هناك بقع ألوانٍ جافة على يدي، متى كنتُ أرسم؟ أهبط بقدميَّ أرضًا، وأرتدي نعلي، لا بدّ أنَّ فردتَيهِ تمدَّدتا، فلم تعودا دافئتيْن كما عهدتهُما.

في الرّدهة، أتحرّك وبالكاد أملك حركتي، وكأنّ أحدَهم يقودني، أنتهي إلى المدخل الأماميّ، حيث أسفل الدّرج، أشعر بالتّعب من السّير، مُنهكةً، حتّى إنّني أسندتُ رأسي إلى الجدار قبل أن أنحني لألقي نظرة على الصّورة ذات الإطار هناك.

في الأسفل، أرمقُ تلك البقعة الّتي جعلتُ عليها علامة بدبّوس شعري.

ولكنّني أرى علامات عدّة هناك، أربعين علامة على الأقل، أو خمسين... الكثير منها، لا يمكنني إحصاؤها، يخفق قلبي بشدّةٍ، ويتسارع وقع أنفاسي، تهمد جوارحي، وأعجز عن كلّ حراكٍ.

أنظر أسفل الدّرج، هل عبرتُ هذا المكان من قبل؟ أيجدر بي الهبوط؟ لا أريد ذلك، لا أريد رؤية ما يقع هناك في الأسفل، ولكن إن أردتُ فَهم هذه الدّار، وما يحدث لنا، فعليَّ الهبوط، يجب أن أرى ذلك

بعينيَّ.

أمسك بالدرابزين لإعانتي، وتطأ قدماي في أثناء هبوطي درجًا تلو الآخر، أسمع صوتًا مكتومًا ،ما يجعلني أتوقف عند الدّرجة الأخيرة، أسمع الصّوت ثانية، يبدو لي أشبه بالأنين، أتقفّى مصدرَ الصّوتِ، رغم مخاوفي، وأدلف غرفةً كانت على يساري.

تصعب عليَّ الرّؤية في العتمة، بالكاد هناك ضوء، وبالقدر الضّئيل الّذي حظيتُ به، أدركتُ مصدر الصّوت.

خطوتُ خطوتيْن إلى الدّاخل، يثبت نعلي في مكانه فأكاد أسقط، كانت هناك حقيبة على الأرض، أنظر للأسفل، فأرى حقائبَ عدَّة تتشابه في الحجم، تبدو وكأنّها أغطية وسائد، أرى مجموعة منها مكوَّمة حول الغرفة، ما طبيعة هذه الغرفة؟ خزانة؟ مخزنٌ ما؟ لا أدرك أيَّ غرفة تعلو هذا المكان ولا مكاني بالنّسبة إلى غرفتي.

أتناول الحقيبة الّتي عرقلتني، أفتح مقدّمتها، ولا أتمكّن من رؤية ما بداخلها، فأمدُّ يدي إلى الدّاخل بتردّد حتى ألمس شيئًا من محتوياتها، أخرجها، وبها حفنة من خيوطٍ ناعمة.

أقرّبها من وجهي، أعتقد أنّني أحمل ...شَعرًا.

وحالما أدرك ذلك، أسقطها وأمسح يدي بساقي، أعضُّ على شفتي السّفلى بقوة حتّى أتمكّن من تذوّق الدّماء، وذلك حالما فتحتُ الحقيبة الثانية، وأفرغتُ محتوياتها على الأرض، كانت مملوءة بالأظافر المقصوصة، أبدأ في السّعال، أنهار، وأسقط مستندة إلى الحائط.

كانت هناك المزيد من الحقائب، أكثر من أن أُحصيَها، كم مضى على وجودها هنا؟ كم مضى على وجودي أنا هنا؟ إنّها مملوءة بحصيلة سنين عديدة من الشَّعر وقصاصات الأظافر.

أزيح الحقائب من طريقي، وأغادر الغرفة، أتوجّه إلى مصدر الصوت.

أجد سريرًا مفردًا في نهاية الغرفة، ولا أجد شيئًا آخر فيها، أسير إليه، وأدرك وجودَ جسمٍ أفقيِّ الشّكل على السّرير، لا يتحرّك، في منتصف طريقي إليه، يُصدر الصّوت الذي أسمعه، زفرات عميقة وتنهّدات.

أتوقّف، أتساءل ما إذا كانَ يجب عليَّ متابعة السّير، أنظر خلفي إلى الدّرج، عندما أصل إلى جانب السّرير، أدرك أنّه شخصٌ ما، إنّه هيلبرت، متى رأيته آخر مرّة؟

متى تحدّثنا آخر مرة؟ يتسارع نبض قلبي، ويخفق بشدّة لمنظره.

كانت هناك مصابيحُ عديدة متوهّجة حوله، أجهزة ترطيب الهواء ومروحة، على ما أعتقد.

بدا لي في حالة يُرثى لها.

"هيلبرت؟ هل أنت بخير؟".

يئنُّ قائلًا: "الجوّ بارد".

أجد صوته هشًّا.

تتعذّر عليّ الرّؤية في العتمة، فأرفع بالكادِ الأغطيةَ حتّى تمنحَه بعض الدّفءِ، بدا لي أنّ تلك الفطريات استولت على جسده، على وجهه ويديه، رأيتُ يديه الوهنتين، وأصابعه المعقوفة والمشوّهة.

"أوه! لا، لا، ما الّذي حدث؟ إنّها أنا، بيني، كنتُ أبحث عنك في كلّ مكان، هذا غير ممكن، ما الّذي حدث؟".

أحتاج ضوءًا، أردت رؤيته بصورةٍ أفضل وأوضح، سألته:

"ما الّذي فعلتْه بك؟".

يحاول أن يخبرني شيئًا ما، ولكنّ الكلمات تأبى أن تخرجَ من بين شفتيْه، أجلس إلى جانب السرير، فيضع يده على يدي، أشعر بثقلها المُطمئنّ، ولكنّها لم تكن يد هيلبرت الّتي أعرفها، بدت لي غريبةً، ولم أجد في ملمسها ما كنت أجده من أحاسيس.

"أنا خائفة... سأساعدك... أعدك".

قال: "ما يزال هناك المزيد من العمل لإنجازه، تريد منّا متابعة العمل، يجب أن نظلّ نعمل، ولكنّني متعبٌ".

قلتُ: "لا، ليس عليك أن تعمل بعد الآن".

قال: "لا تُعدّ الكذبة مخيفة في الحقيقة، لأنّها كذبة".

"ما الكذبة هذه المرّة؟".

"تتعلّق الكذبة بما نريده من الحياةِ في مثلِ هذا العمر، إنّنا نطمعُ في كرمها، وفي أن ننهل من مَعينها أكثرَ وأكثرَ، ونريدُ لأنفسنا في ما تبقّى لنا من أنفاسٍ أن تبذلَ وسعها، وأن تكون معطاءة منتجةً، تحدونا الرّغبة في أن يمتدّ بنا العمرُ أكثرَ، ولم نعدْ نرى في الموت إلّا عدوًّا لدودًا، وليس الأمر كما نتصوّر يا بيني، لطالما اعتقدت أنّ اللّانهاية أمرٌ غامضٌ وملغزٌ، وهي ليست كذلك بالمرةِ، إنّها لا تعدو أن تكونَ أكثر من امتدادٍ أبديٍّ".

أزيح خصلة الشّعر من على جبينه.

"ما الّذي بوسعنا فعله؟".

قال: "إنّنا هنا، ولا خِيار لدينا".

أمسح على يده بيدي الثّانية، وأنحني لأقبّلها ،أسمعُ حالَ انتصابي واقفةً، حركةً ما، ووقع خطواتٍ.

قال: "تريد شيلي ما يريده الجميع، ما الّذي يُريده الجميع ويردّدونه

باستمرار؟ المزيد، ولكن ليس من الصّعب إدراك أنَّ المزيد من الوقت سيغدو في النّهاية."...

قلتُ أنهي فكرته: "أسوأ الأمور جميعًا، سيغدو الجحيم بعينه".

ردَّد عبارتي: "الجحيم بعينه".

وعندها أدركتُ ما يجب عليَّ فعله، الآن، أخيرًا، أعرف ذلك، بدا واضحًا جدًّا.

قلتُ: "سأساعدك، سأساعدنا جميعًا."

أحتضنه بقوّة قدر طاقتي.

قال: "أتمنى لو عرفتُكِ من قبل، لمدَّةٍ أطول".

"إنّنا نعرف بعضنا الآن".

"إنّكِ معي هنا الآن".

"أجل، وهذا كافٍ".

قال: "لقد ساعدنا بعضنا".

قلتُ: "أجل، ولكن يجب عليّ أن أتكفّل بالأمر وحدي".

قال: "وأنا أيضًا".

أتابع احتضانه، وأشعر بيده تربّت على ظهري.

قال عند وقوفي للمغادرة: "حدسية غولدباخ، أخيرًا تذكّرتُها، أحرص على تقديمها إليكِ، فهي مهمّة، فكلّ عددٍ أكبر من اثنيْن ع > 2، يمكننا كتابته على شكل مجموع عدديْن أوّليْن: س1 وس2، لتكون المعادلة: س1 + س2 = ع... الأعداد والأحرف، أترين؟ نحتاجهما معًا يا بيني".

أقترب منه، وأقبّله برفقٍ على جبينه، تشعر شفتاي برقّة بشرته، أسند جبيني إلى جبينه، أقول: "ليس عليك أن تتذكّر ذلك بعد الآن، لقد

أنهيتَ العمل المطلوبَ منك".

قال: "لطالما أحببتُ شكل وجنتكِ".

صرتُ أعجزُ ما أكون عن تذكّر عددِ ما قضيته من أيّامٍ في هذا المكانِ، لا أكادُ أفعلُ شيئًا ذا بالٍ، أسيرُ في الرّدهات المضلّلة، في هذه الدّار المتقلّصة باستمرار، لا أدري عدد الأيّام ولا السّاعات ولا الدّقائق، أستلقي في سريري، ولكنّني لا أتمكّن من النّوم، وذهني تتجاذبه الأفكار ،أحدهم هناك معي في الغرفة، أشعر بوجود أحدهم.

أريد لهيلبرت أن يرتاحَ.

هناك أربعة نزلاء في هذه الدّار فقط، فما من أحدٍ غيرنا في هذا الفضاء الفسيحِ، حيث يرجّحُ وجودُ غرفٍ أخرى، ثمّ إنّ شخصيْن فحسب يقومان على خدمتنا، الأيّام هنا متشابهةٌ، أرى الوجوه نفسَها، أشارك أصحابَها الطّعامَ، وبعض الأحاديث، ثمّ أعود إلى غرفتي لأنامَ، ثمّ أصحو لآكلَ من جديدٍ، ولأنام، وأصحو، وآكل، وأنام... يا لها من دوّامةٍ، إنّنا ندور في حلقة مفرغةٍ لا مفاجآت فيها، وما من صدفٍ.

أنادي وسط عتمة الغرفة: "هل من أحدٍ هناك؟".

أنهض، وأضيء المصباح، وأجلسُ مصغيةً إلى ما حولي، أسير إلى مكتبي، ثمّ أعود إلى سريري لأغادره ثانيةً إلى الحمّام فأروي عطشي، أعجز عن النوم، فأرتدي السّماعات الّتي تمنع عنّي الصّوت، وبمجرّد أن أشغلها، لا أسمع أيَّ شيء على الإطلاق، أشعر بامتلاء مثانتي بعد شربي الماء، أنهض من جديد، وأرتدي معطفي الصّوفي، لا تزال السّماعات على أذنيَّ، وأعودُ إلى الحمّام من جديد.

أقف، أضغط على زرٍّ تدفق الماء، فلا أسمعه، أعود إلى السّرير، لا

أخلع كنزتي لأنّ البرودة تحلُّ في المكان.

الغرفة معتمة، بدأت أغفو، ليقضّ مضجعي أمر السّتارة في الحمّام، أدعها في العادة مفتوحةً، ويبدو أنّني قد نسيت اللّيلة أن أفعلَ، ولا أريد تفقّدها البتّةَ، أريد أن أنامَ، أريد أن أرتاح.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أفتحُ عينيّ على عمودٍ فضّيٍّ رفيعٍ وطويلٍ، مخصّص لمحاليل الحقن الوريديّ، إلى جانب سريري، يتدلّى منه كيسٌ يحملُ سائلًا ما، هذه ليست مستشفى، بل دارًا، دار رعاية، يُفترض أن تكون أشبه بالبيت، بيتي، أشعر بالنّمل يزحف على جسدي عندما أتابع اتّصال ذلك الكيس بجسدي، أرفع كُمّي لأتبيّن مكانه على ذراعي، ذلك السّائل يُنقل إليَّ.

أشعر بثقلٍ في صدري، وبضيقٍ شديدٍ، ويبدو أنّه قد فاتَ الأوانُ فها هي تُدخل في جسدي شيئًا ما، لا بدّ أنّها فعلت الشّيءَ نفسَه مع بيت وهيلبرت، ومعنا جميعًا.

أتحسّس مكان دخوله في ذراعي، أراه مغطًّى بشريط شفّاف، فأنزعه، أغلق عينيَّ، وأنزع الأنبوب من يدي بسرعة كبيرةٍ.

والآن أقف في الرّدهة.

والآن أمشي.

والآن أبحث عنها، عن شيلي.

وأنا أسفل الدّرج، يتناهى إلى سمعي حديثٌ من غرفةٍ في الأعلى، أصعدُ بحذرٍ، دون أن أحدث أيّ صوتٍ، فإذا أنا بابٍ لم يسبقْ لي أن رأيته من قبلُ، لغرفة ما لم أدخلها من قبل، ألحظ ضوءًا أبيضَ ناصعًا يتسلّل منها، وأسمعهما يتحدّثان.

"لا يمكننا التّوقّف الآن".

أسمع صوت رجل: "أعرف ذلك".

هل هناك آخرون في هذا المكان؟ أهذا صوت جاك؟

سأل: "كيف تشعرين؟".

"أشعر بأفضل حال".

قال: "تبدين بصحّة جيّدة".

قالت: "استغرق الأمرُ وقتًا أطول ممّا اعتقدتُ".

أقترب أكثر، وأنحني لأحصل على رؤية أفضل من الباب المفتوح، ولكنّني أعجز عن ذلك.

"أعتقد أنّ ذلك يعود لكونها الأخيرة، أملتُ أن يكون الأمر أسهل مع بيني".

"أملتُ ذلك أيضًا".

"ولكنّنا لسنا هنا للمهمّات السّهلة".

تسنّى لي أخيرًا أن أرى بصورةٍ أفضلَ، رأيتُ ظلالًا، تبيّن لي بعدَ حينٍ أنّها ظلال المزيد من أنابيب الحقن الوريديّ، كانت تتحرّك على الأرض كالأفاعي بصورةٍ جماعيّةٍ، أعدُّها: واحد – اثنان – ثلاثة –

أربعة، أربعة أنابيب.

أستدير عائدة، وأهبط الدّرج.

أسرعُ خطوي، وألتقط أنفاسي قليلًا، ثمّ أواصل المسيرَ في الرّدهةِ، أنتهي إلى الغرفة المشتركةِ أرى ضوء الصّباح الباكر، في أوائله، بزرقته المعتادةِ، لطالما كان هذا وقتي المفضّل من اليوم، لأنّه لا يدوم طويلًا، كنتُ أتوجّه إلى الحديقة العامّة لأجل هذه السّاعة السّاحرة فقط، الّتي يسهل تفويتها؛ إذ يعتقد الجميع أنّها لحظة عاديّة في كلّ يوم يستيقظون فيه، ولكنّها لحظة استثنائيّة، مذهلةٌ تعبق بالسّحر.

أنظر خارجًا، لم أضع يدي يومًا على هذه النّوافذ، لم ألمسها من قبل.

أسير عبر حوافّ الكنبة والطّاولات الجانبيّة والنّباتات، وأقف مباشرة أمام النّوافذ الضّخمة، تبدو لي أبعادها كلّما دنوتُ أكبر ممّا ظننتُ، أطول وأعرض، لم أقترب يومًا من هذه النّوافذ، شعرتُ أنّني أصغر حجمًا، بدا الجوّ باردًا للغاية في الخارج، هناك الكثير من الأشجار، لدرجة أنّنا قد لا نُطلّ إلا على جزءٍ صغير من الغابة؛ جزء عشريٍّ منها.

يقع على عيني وميضٌ من الضّوء، بالقرب من أسفل النّافذة، أنحني، فأجد بقعة على النّافذة أكثر إشراقًا بقليل، ألمسها، فأجدها غايةً في النّعومة عكس ما توقّعت، أضغط بإصبعي عليها، فأجدها تطاوعني، تتحرّك قليلًا، كانت مقاومتها هشّةً.

أستعيد قطعة من أحجية باندو من على الطّاولة القريبة منّي.

"باندو" هي المرادفُ اللّاتينيّ لـ"أنا أنتشر."

أخبرني هو بذلك، هيلبرت، توجّب عليَّ نزعها من مكانها،

واستخدامها للضّغط على النّافذة، بالقوّة كلّها الّتي تمكّنتُ من استجماعها.

مثلَ نسيجٍ قماشيّ ينحني الزّجاجُ، وتخترقه القطعةُ وهي بين يدي لتُحدثَ فيه ثقبًا صغيرًا، دون أن ينكسرَ، أشعر بدوران الغرفةِ من حولي، وبأنّ الأرض من تحتي رخوةٌ، أثبتُ عيني على الثّقبِ الضّئيلِ فأرى بدلًا عن الغابةِ ردهةً جديدة شبيهةً بتلك الّتي توجد خارج غرفتي، أجد الفرق بينهما واضحًا، ولكنّني أعجز عن تمييزه، وأدرك أنّ ثمّة أمرًا، هذه السّجّادةُ أعرفها جيّدًا، إنّها نفسها تلك الّتي أمتلكها في شقتي القديمة.

ورغم ضآلة الثّقب الّذي لم يسمح لي برؤية الكثير، أرى أضواءً ومعداتٍ أخرى، أرى كمانًا، وقاموسًا فرنسيًّا ،وكومةً من أوراق الرّسم البيانيّ الزّرقاء، وقلمَ رصاص، ولوحاتٍ قماشيّةً فارغةً، كانت كلٌّ من عيني ومن وجنتي ملتصقتيْن بالنّسيج المثقوب عندما شعرتُ بأحدهم يمسكني من ظهري.

أحدهم وضع يدَه عليّ، وتشبّث بي، تنتابني نوبةُ هلعٍ ما انفكّت تتفاقمُ قبلَ أن يتلاشى كلّ شيءٍ، أستيقظ بدهشة عندما أشعر بلمسة خفيفة على كتفي، أرمش، وأحاول استجماع ذهني. لا أرى شيئًا، أسمع صوتًا.

يهمس جاك: "بيني".

ويقترب من سريري.

أفتح عينيَّ أكثر على اتّساعهما، فأجده ينظر إليَّ بمودة، كان جفلًا ومنتبهًا.

سألته: "ماذا حدث؟ أنا خائفة".

"لقد راودكِ كابوس آخر، كنتِ تصرخين".

أركّز على أنفاسي، شهيقٌ ثمَّ زفير، شهيقٌ وزفير.

"لِم ما زلتُ هنا؟ لا أعتقد أنّه يجدر بي البقاء".

"بيني."...

"هل تبقوننا أحياء؟ جميعنا؟".

"أوه! يا بيني".

يلمس كتفي من جديد ويقول: "أعتذر، لستُ شخصًا طيّبًا".

قلتُ: "بلى، أعتقد أنّك كذلك".

"آمل لو كنتُ أفضل، لقد ارتكبتُ الكثير من الأخطاء".

قلتُ: "لطالما كنتَ طيّبًا معي".

"جئتُ إلى هنا لأنني مُعدَمٌ، وفي أمسِّ الحاجةِ إلى عملٍ، أخبرتني: ما أهمُّ شيء للحياة من العيش فيها؟ ظننتها ذكيّة ومراعية للآخرين".

بدا وجهه مُحمرًّا وهزيلًا.

سألته: "أرجوك أخبرني! الآن! ما الّذي يوجد في هذه الدّار؟ ما الّذي يوجد خارجها؟ إنّ الأبوابَ مقفلة".

"بالتّأكيد هي كذلك".

"ولكن."...

قال: "يجب أن يُسمح لكِ بالتّجوّل خارجًا، ليس من الصّائب أن يُمنع عنكِ ذلك".

يلتفت إلى الباب وكأنّه سمع شيئًا.

"جاك."...

يرفع إصبعًا إلى شفتيْه.

سألته: "ما الّذي تندم عليه أشدَّ النّدم؟".

"لم أعِش حياتي إلى أقصاها بعدُ، سيعتمد ذلك على عدد السّنين المتبقّية لي".

"أذكر سيّدة عاشت خارج البناية التي عشتُ فيها، قالت يومًا: "ستُلقين في الجحيم عندما تموتين"، صرخت ذلك في وجهي، "ستُلقين في الجحيم! "بدا لي ذلك مروّعًا، عندما كنتُ شابة، أي أن أسمع أحدهم يقول "عندما تموتين"، أن تفكر في موتك، في الموت، كم هو قريبٌ من الجميع، ولكنّني اليوم أعلم أنّ هذا ليس بالأمر المرعب".

"حقًّا؟".

"أجل، كنتُ أتحدّث مع هيلبرت، لا تكمن مأساة الحياة في انتهائها، فتلك نعمةٌ، ولا شيءَ أشدّ أهمّيّةً من النّهايةِ، إنّها تمنحنا المعنى، الّذي ينتفي بافتراضِ غيابها، أترى؟ لا تكون اللحظة لحظةً، بل تكون أبدًا، يجب أن تعني اللّحظة شيئًا ما. يجب أن تُمثّل كلّ شيءٍ".

اغرورقت عيناه بالدّموعِ، دون أن تبدوَ عليه أماراتُ الحزنِ، تسمّر في مكانه بعضَ الوقتِ، ثمّ التفت نحوَ الطّاولةِ، حيثُ وقعت عيناه على ورقةٍ وقلمٍ.

قال: "أنتِ مُحقّة".

يتناول الورقة والقلم، ويخربش أمرًا ما، ثمّ يضعهما على الطاولة من جديد.

قال يلمس ذراعي: "هذه لكِ، أعرف كم تُحبّين الهواء المنعش".

يغادر دون التفاتٍ.

ألتقط الورقة، أجد على أحد وجهيْها ملحوظةً قديمةً كتبتُها لنفسي.

"أنتِ تُحبّين الحديثَ مع هيلبرت".

أقلبها، وأنظر إلى الرّسالة الّتي خطّها جاك من أجلي.

"لقد راودكِ توًّا حلمٌ مزعجٌ يا بيني، هل أنتِ بخير؟".

إنّها هي، شيلي، تقف إلى جانب سريري، تنحني فوقي.

قلتُ: "ابتعدي عنّي، لا تلمسيني".

أفتح عينيَّ على اتّساعهما، قدرَ الإمكان، فأراها بوضوحٍ أكبر.

قلتُ: "أعرف الحقيقة".

"رجاءً يا بيني، هذا لن يساعدكِ".

"افتحي نافذتي! لن تتمكّني من ذلك؛ لأنّها جميعًا مزيّفة، إنّها ليست حقيقيّة".

"ما الّذي تتحدّثين عنه؟".

"أعرف أنّها غير حقيقيّة، لا يمكنكِ فتحُها".

تتوجّه شيلي إلى النّافذة، تفتحها، وتمدّ ذراعها الطّويلة خارجًا.

"إنّ البرد قارسٌ في الخارج، هل يمكنني إغلاقُها يا بيني؟ رجاءً؟".

"أريد من جاك أن يفعل ذلك".

"جاك غير موجودٍ هنا الآن".

"ماذا؟ ما الّذي تعنينه؟ ما كان ذلك الشّيء في ذراعي؟".

"ذلك الشّيء، كما تسمّينه، مُهمٌّ للغاية، أنتِ في حاجة إليه، كنتِ تزدادين جفافًا، ظلَّ متّصلًا بكِ لستّة أشهر، أملتُ أن تعتادي عليه مع الوقت".

أشعر بالدّماء تجفِّف وجهي.

"لم أرَ هذا الشّيء حتّى هذا الصّباح".

"هل تعلمين لِمَ أنتِ هنا؟ لِمَ لَمْ تمكثي في شقتكِ؟".

"لأنّني عجوز، وها أنتم الآن تستغلّونني، بل تستغلّوننا جميعًا."

"بل لأنّكِ لستِ على ما يرام يا بيني، وتحتاجينَ مساعدتَنا، ولأنّك عرضةٌ للنّسيانِ، يهمّ بك في أوقاتٍ كثيرةٍ، مثلما حدث معك اليومَ، فترتبكين، ويسيطر عليك الخوفُ والتّذمّر من كلّ شيءٍ".

"إنّك تتعمّدين إخفاءَ الحقيقة؟".

"الحقيقة هي أنّنا نعتني بكِ هنا، ونرعاكِ، وأنّك تتعافيْن بصورةٍ ملحوظةٍ."

"أين هيلبرت؟ أخبريني إلى أين أخذتِه؟".

"لم يعد هيلبرت في صحّة جيّدة، إنّه يرتاح".

"أنتِ تؤذينه، إنّكِ تبقينه حيًّا... تفعلين هذا بنا جميعًا."

أشاحت عينيْها عنّي للحظة، محاولة استجماع شتات نفسها.

"من الجيّد أنّكِ تهتمّين بشأن صديقك هيلبرت، ولكن عليكِ أن تكفّي عن القلق يا بيني، ما زال بإمكاني تذكّر يومكِ الأوّل هنا، لقد تواءمتِ مع هيلبرت سريعًا".

"ولكنّي انتقلتُ هنا توًّا ،ما زلتُ جديدةً بينكم".

تميل برأسها، وتبتسم.

"لا يمكنكِ قول هذا، على الإطلاق، لا سيَّما بعدما قضيتِ معنا ثلاث سنواتٍ يا بيني".

أسمع كلماتها، ولا أصدّقها، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، لقد انتقلتُ هنا توًّا.

"أنتِ تكذبين! أين جاك؟ وهيلبرت؟".

"جاك في إجازة اليوم".

لا أقول شيئًا.

"أتودّين رؤية هيلبرت؟ ولكن عليكِ أن تعديني بألّا تزعجيه".

"أريد رؤيته".

"حسنٌ، هيّا، سأصحبكِ إليه، لنذهب".

وتساعدني في السّير برفقة عمود المحاليل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تفتح شيلي باب غرفة هيلبرت، وتنتظرني كي أدخلها أوّلاً.

أراه هناك، أمامي مباشرة، مستلقيًا على سريره، نائمًا، أرى الأغطية مرفوعة عليه بعناية، تصل حتّى ذقنه، لم يكن حليقًا، لم أرَه بشارب طويل من قبل، وبدا شعره أشعثَ، باقترابي منه، أمدُّ يدي لألتقط الكتابَ من على المنضدة المجاورة لسريره: "الهندسة اللاتبادليّة ونظريّة الأعداد: حيث يتقاطع الحساب مع الهندسة والفيزياء"، كان قد كتب بضعة أسطر بقلم الرّصاص على هامش الصّفحة التي فُتح الكتاب عليها:

"اسأل بيني إن كانت ترى وجود أدلّة رياضيّة على الاستحالة أمرًا مريحًا، مثل: تجزئة الزّاوية إلى ثلاثة، أي تجزئة أيّ زاوية إلى ثلاثة أجزاء متساوية".

أشعر بالدّفء يغمر صدري وأنا أغلق الكتاب، وأضعه إلى جانب سريره.

قالت شيلي بهدوء: "كما ترين، إنّه مُرتاح، وفي أمان".

أنظر إليه، كان رائعًا ،مذهلًا، لا أعرف في أيِّ البلاد وُلد. أو كيف كانت طفولتُه، ولكنّني أشعر بالعاطفة القويّة تجاهه، في وقوفي هناك إلى جانب سريره، إنّه رجل جديرٌ، لطالما كان كذلك، إنّي متيقّنة.

"لقد رأيته ليلة البارحة، ولم يكن على ما يرام".

"لا أعلم ما تقصدينه يا بيني، إنّكِ ترينه الآن، على ما هو عليه".

أمدُّ يدي لألمسه، ولكنّها توقفني، وتمسك بيدي.

"لا، لا تلمسيه، يحتاج إلى الرّاحة".

أسحب يدي.

"كلُّ ما في الأمر، أنّي متيقنة من ذلك، لقد كان."...

ثمّ أتوقّف.

"نأمل أن يستيقظ اللّيلة".

"اللّيلة؟".

"أي عند الحفلة!".

"تظلّين تذكرين تلك الحفلة."...

"ليس الخطأ خطأك، من الصّعب تذكّر التّفاصيل كلّها، إنّكِ تُحبّين حفلاتنا، وفي كلّ مرة نُنشئ حفلة، فإنك ترهقين نفسكِ بالرّقص".

ثم تسحبني إليها، وتحضنني، أجد وجهي غارقًا في كتفها، وقتًا بدا لي طويلًا، إنّها تحضنني كما كان يحضنني والدي عندما تُجرح مشاعري.

قلتُ: "ولكنّني جديدة في هذا المكان".

"أوه يا بيني! إنّ الليلة ليلتكِ الأهمّ".

"ليلتي الأهمّ؟".

تُحررني من عناقها، أرى أنبوبَ عمود المحاليل يمتدّ من أسفل غطاء هيلبرت، ويتّصل بكيسٍ معلّق عند سريره.

"اللّيلة أولى عروضكِ على الإطلاق! ستحظين بافتتاحٍ لأعمالكِ".

لم أحظَ بعرضٍ من قبل، ولا بافتتاحٍ لأعمالي، ولم أعرض أعمالي يومًا على الآخرين، لم أفعل هذا مرّة في حياتي، على الإطلاق.

قالت: "ربّما سأريكِ شيئًا، نظرة سريعة عليها".

"تُريني ماذا؟".

"أمِلتُ ألا أفعل ذلك حتّى الليلة".

أعدتُ سؤالي: "تُريني ماذا؟".

"لوحاتكِ، لقد كنتِ مُنتجة بوفرة، هذا مثير جدًّا للإعجاب".

تخرج إلى حيث الرّدهة، وتتركني وحيدة مع هيلبرت، أقترب منه، أريد لمسه، أن أزيح الأغطية عنه، وأتأكّد من سلامة ذراعيه ويديه، ولكنّني حالما أمسك بيده، تعود شيلي ومعها صندوق، تفتح غطاءَه، وتضعه أرضًا.

"هاكِ، ألقي نظرة، إنّي على وشك تعليقها".

أحرِّر يد هيلبرت، وأمدُّ يديَّ إلى الصّندوق الّذي تمسك به، أتناول بضع لوحات.

قالت: "إنّها بديعة".

لا خطأ فيما تقوله، إنّها أعمالي.

قالت: "هناك المزيد".

هناك ما يناهزُ الثّلاثين لوحةً أو أكثرَ من ذلكَ، يستغرق رسمها سنينًا، وهي بورتريهاتٌ لكلٍّ من بيت، وروث، وهيلبرت، نقطة التّقاطع بينها أنّها غيرُ مكتملةٍ، هكذا أراها، في حاجةٍ إلى شيءٍ ما عصيٍّ عن التّحديدِ، وإن بدت لمن يراها مكتملةً.

ينتابني وأنا أرى أعمالي إحساسٌ مقيتٌ، ولا أجد رغبةً في الكلامِ، إنّني ببساطةٍ قد تقدّمت في السّنّ، وأسير نحو نهايتي، "إننا فخورون بكِ، وبأعمالكِ يا بيني، ولا يسعنا الانتظار حتى نعرضها اللّيلة في الحفلة، تبدين متعبةً، أرى أثرَ الإرهاق مرتسمًا على عينيْك، لنعُد إلى غرفتكِ لتحظي بقيلولة.

هناك العديد من الأشجار خارج الدّار، حتّى إنّ المرءَ يعجزُ عن أن يتعرّفَ إليها جميعها، تنتصبُ كلّ شجرةٍ في مكانها، وتتمتّع باستقلاليّتها التّامّة، فلا شيءَ يزاحمها في وحدتها وشموخها.

أقف إلى جانب سرير هيلبرت، وهو مستيقظٌ، أتأمّلُ ملامحَه، ويتفحّصني بناظريْه صامتيْن، فلا حاجةَ لنا إلى أيّ حديثٍ.

أُمسك قبلَ مغادرتي بيده مكتفيةً بملمسها.

لم أكن في الغرفةِ المشتركة، ولكنّني كنتُ قادرةً على تمثّلِ جاهزيّتِها للحفلِ، وقادرةً على تمثّلِ ما فيها بعينيّ المغلقتيْن، وبوضوحٍ تامٍّ، كما لو أنّني هناك.

أرى الجمعَ متحلّقًا، البالونات، ولافتات العناوين، وعصير البَنش[7]، نُظّفت السّجّادة، وغُسلت النّوافذ، بيت يضبط كمانه، روث تلقي كلمات باللاتينيّة بدلًا من الفرنسيّة.

كنتُ راضيةً تمامَ الرّضا عمّا أنجزتُ، وأراه جميلًا لأنّني انتهيتُ منه، هناك العديد من الأشياء التي يمكننا أن نتخلّى عنها، ثمة الكثير لتركه[8].

سأغادر لا محالةَ، سأهجر هذا السّريرَ، وبفضلي، سيكون بوسعهم أن يغادروا من بعدي، وتلك هديّتي لهم، لن يتحتّم على بيت العزف من جديد، ويمكن لروث أن تعيد قاموس الفرنسيّة إلى الرّفِّ من جديد.

يمكن لهيلبرت أن يضع قلمه، فلن يحتاج المزيد من ورق الرّسم البيانيّ الأزرق، نحن لا نمتزج معًا، لم نفسد، ولم نعجز، ولم نغدُ عبئًا على غيرنا، لسنا عجّزًا، مثلما يريدونَ لنا أن نكونَ، ولنا فرادتنا، وتميّزنا، وقدرتنا الّتي لا تنضب على العطاء.

وبصرف النّظر عمّا أنتجنا، وما تركنا من أثرٍ يمثّلنا، ويعبّر عن

(7) عصير يضم مختلف عصائر الفواكه مدموجة معًا. (المترجمة)
(8) قالتها بالفرنسية. (المترجمة)

وجودنا، وبصرف النّظر عمّا يحدث لأجسادنا، وما يتهدّدها من عللٍ، فإنّنا نحيا، بامتلاءٍ، ولنا ذكرياتنا، ولنا تجاربنا، ومحطّاتنا، وبصمتنا، لقد مررنا من هنا، ووقّعنا بأناملنا، وبعقولنا، لن يرهبنا النّسيانُ، ولن يحبطنا الضّياعُ.

بوسعنا الآن أن نرتاحَ، بوسعنا أن نرحلَ مطمئنّين.

أتنحّى عن سريري، وأنأى بجسدي عن المكان، حتّى إنّني لم أعد قادرةً على رؤيةِ ما يجري بوضوح: تسير شيلي في الرّدهةِ، بكعبها العالي، وتصلُ غرفتي، تدلفها دون أن تنبس ببنت شفةٍ، ترمق السّقفَ، وأحسبُ أنّها قد جلست، ورفعت ساقيْها، تشهد بناظريْها ما فطرت يدي، وتلتقي عيناها للمرّة الأولى بجداريّتي الضّخمة، الّتي أفنيتُ فيها الوقتَ الكثير، والجهدَ، وأخلصت في قدّها، تمتدّ الجداريّة لتبلغ الحمّام، والرّدهةَ، والغرفةَ المشتركةَ، إنّها تمسحُ من المكانِ أغلبه، بصورةٍ مذهلةٍ.

الأمرُ أكبرُ من قدرتهم على أن يتمثّلوا ما استغرقه من الوقتِ، والعنايةِ، ولا جدوى من أن أخبرَهم لذلك، فلن يصدّقوا، ستنتشر الجداريّةُ، وتمتدّ لتشملهم جميعهم، إلى حيث روث، وبيت، وهيلبرت، وإلى حيث جاك، وشيلي.

آمل أن يُشعرها هذا الإنجازُ بشيءٍ من الامتنان، وأن يبعثَ فيها بعض الطّمأنينة.

أرى أصابعي بأظافرها المطليّة حديثًا تتوزّع على لوحة المفاتيح، في دار أشجار الأرزّ السّتّ.

O – R – T – U – S أو 6 – 7 – 8 – 8 – 7

أعدادٌ وحروف.

يُصدر الباب صوتًا عند فتحه.

أشعر بالتّوتر، والخوف، أشعر بالبرد الشّديد.

أنظر خلفي، ومن ثمّ أغادر.

مكتفيةً برداء نومي، أسير حافية القدمين، أعبر ممرًّا حجريًّا مفضيًا إلى الغابة الكثيفة، حيث الأشجار، لم أكن رغم الثّلوجِ المتهاطلة أشعر بالبردِ، أقدامي شاحبةٌ، والأرض من تحتي منحدرٌ وعرٌ، تجمّلتُ لحفل الافتتاح بوضع مساحيقَ على وجهي.

أسمع رنين المنبّه، أرمق القطّ على مقربةٍ من شجيرةٍ صغيرةٍ، أصوّب نحوَه وأداعبه، يطبق الصّمت فجأةً، كما لو أنّني أضع تلك السماعات الّتي تمنع الصّوت.

ولكنّني لا أرتديها، لا أرتدي أيّ سماعات.

الهدوء يعمُّ المكان، من حولي، وفي داخلي.

أواصل السّير بين الأشجار حتّى أصل حافة الغابة، حيث تنتهي الأرض، أقف على رأس منحدر شديد، مرتفع للغاية، أحبّ الضّوء في هذا الوقت قُبيْلَ الصّباح، لا يدوم طويلًا على الإطلاق.

أتحرّك بحذرٍ باتّجاه الحافّة، أشعر بالتّوتر، وكان أشبه ما يكون برفرفة فراشاتٍ داخلي، أنظر إلى الأسفل، فلا أكادُ أرى شيئًا، أشعر بهبّاتِ الهواءِ، فأنتشي، يُطبق الصّمتُ، فأغلقُ عينيّ، وينتابني في الأثناء إحساسٌ بأنّني أرتفعُ، وأهوي في الفراغ.

أهوي من الأعالي، بسرعةٍ لا يمكن تقديرها، هذا ما بدا لي، أو لعلّني أطفو... أطفو...

رحلَت بيني بهدوءٍ عن عمرٍ يناهزُ الثّانية والتّسعين، في دار أشجار الأرز السّتّ، ودّعت الحياةَ وهي محاطة بطاقم من العاملين لطالَما عاشت بينهم فأحبّوها، تركت بيني وراءها مجموعة فنّية مذهلة، وأعمالًا رائعةً، وتركت اللّوعة في نفوسِ أصدقائها الّذين شاركوها أجملَ أيّامها في الدّار، أحبَّها الطاقم ونزلاء الدّار، وعدَّها الجميع جزءًا من العائلة، خلالَ سنوات إقامتها بالدّار، زارنا الأسقف في الدّار، وكُرّمت روحها الزّكيّة في موكبٍ جليلٍ، سيفتقدها الجميع بصدق".

الشّكر والتّقدير

انتقلت جدتي إلى دار رعاية للمسنّين، طويلة الأمد، حتّى وصلت إلى المئة عام، قضينا الكثير من الوقت هناك معها، حيث عاشت قرابة العامين، قبل وفاتها، أريد أن أشكر المُعتنين بها والممرّضين وطاقم العمل والمتطوّعين جميعهم، وكلّ من يعمل في دور الرّعاية طويلة الأمد ويتطوّع فيها، أشكركم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إيان ريد

نحن ننتشر

«أحببتُ هذا الكتاب ولم أستطع التوقُّفَ عن قراءته. رواية آسرة بعمق، سريالية، وغامضة بأسلوب مذهل. لم يقدِّم لنا ريد تحفة أدبية مشوّقة فحسب، بل تأمُّلًا عميقًا ومؤثرًا في الحياة والفن، والموت واللانهائية. ريد بحقٍّ سيّد في حرفته».

مونا أواد

«في هذه التحفة الآسرة الأخيرة، يتوغّل ريد في الأعماق الغامضة لعلم النفس، حيث تتماهى العقول الفردية وتفيض الحياة في شكلها المتداخل وغير المتمايز. وبرقّة واقتدار، يمنحنا رؤى ثرية في ماهية الشيخوخة وتجربة الوجود الإنساني المدهشة والمليئة بالدوار».

أليكسندرا كليمان

«رواية نحن ننتشر هي سحر سردي خالص؛ مشوّقة، غنية فلسفيًّا، وجريئة إلى أقصى الحدود في أسلوبها وفضائها السردي. إنها إثارة نفسية تأسر القارئ بسردها الواضح والمندفع بإيقاعه الخاص. ينجح إيان ريد مرّة أخرى في تسليط الضوء بقوة على أسرار الفن والحياة والوعي».

ديفيد شارياندي

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: ماهر عدنان

صفحة ٧